أجاثا كريستي

التضحية الكبرى

ترجمـة

احمد حسن

الحريــة

للنشر والتوزيع

اسم الكتـــاب	التضحية الكبرى
تـرجـــمـــة	أحمد حسن
الـنــاشـــــر	الحرية للنشر والتوزيع
	٣ ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة
	ت: ٢٢٦١٥٦٤٦ ـ ٢٥٧٤٥٦٧٩
	م: ٠١٢٣٨٧٧٩٢١.
رقـم الإيـداع	٢٠٠٧/٥٨٦٧
الترقيم الدولى	62- 85 - 23 - 206

الحريـــة 3 ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة

للنشر والتوزيع 0123877921 - 25745679

حب ينمو بهدوء

قابلت صوفيا ليونيدس لأول مرة
فى مصر، قبيل الحرب العالمية..

كانت تشغل منصباً هاماً فى أحد المكاتب التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وكانت صلتى بها فى البداية مجرد صلة عمل، ولكنى ما لبثت بعد فترة قصيرة أن تبينت ما لها من مواهب وصفات مميزة أهلتها للاضطلاع بمسئوليات ذلك المنصب الهام رغم أنها لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها.

كانت على قدر كبير من الجمال والذكاء، وكان يطيب لى حديثها فتوثقت بيننا أواصر الصداقة وصرنا نخرج معاً لتناول العشاء.. وللرقص فى بعض الأحيان.

واستمرت هذه الصداقة إلى أن وضعت الحرب أوزارها، وصدر الأمر بنقلى إلى منصب فى الشرق الأقصى، وحينئذ اكتشفت أننى أحبها، وأننى أتمنى أن أتخذها زوجة لى..

اكتشفت ذلك ونحن نتناول طعام العشاء معا فى فندق «شبرد»، ولم

يدهشنى هذا الاكتشاف، فقد كان بمثابة اعتراف بحقيقة أعرفها منذ وقت طويل.

ونظرت إلى صوفيا بعين جديدة، ولكنى لم أر فيها غير ما ألفت رؤيته والإعجاب به.. الشعر الأسود الغزير يتوج رأسها، والعينين الزرقاوين الصافيتين، والأنف الصغير، والذقن البارزة التى تدل على قوة الإرادة.

وكنت قد لاحظت بعد كل الأحاديث الصريحة التى دارت بيننا عن آرائنا وأصدقائنا أن صوفيا لم تذكر كلمة واحدة عن أسرتها..

كانت تعرف كل شىء عنى.. وأنا لا أعرف عنها شيئاً.. ولكنى لم أفطن إلى هذه الحقيقة قبل تلك الليلة... وسألتنى صوفيا فيم أفكر فأجبتها: فيك.

– أحقاً..؟

– إننى لا أعرف متى سأعود إلى إنجلترا، ومن المحتمل جدا أن يمر عامان قبل أن نلتقى مرة أخرى.. وقد كنت الآن أفكر فى أن أول ما سوف أفعله عقب عودتى.. هو أن أذهب إليك لأطلب يدك.

فاستقبلت النبأ فى هدوء، ولم يخفق لها هدب، واستمرت تدخن دون أن تنظر إلى حتى خيل إلى أنها ربما لم تفهم ما أعنى.

قلت لها: إننى مصمم على ألا أطلب يدك الآن.. لأن ذلك.. يكون ضرباً من الغباء أولاً لأنك ربما ترفضين فاذهب حزيناً كسير القلب: وقد يدفعنى اليأس إلى أن أربط مصيرى بمصير مخلوقة تافهة.. وثانياً لأنك إذا وافقت فأننى لا أعرف ماذا نستطيع أن نفعل بعد

ذلك.. هل نتزوج فوراً ونفترق غداً؟ أم نعقد خطوبتنا وننتظر إلى ما شاء الله؟ إننى لا أريدك إذا ما قابلت رجلاً آخر أن تشعرى بأنك مرتبطة بى.. نحن نعيش الآن فترة محمومة، يتزوج فيها الناس بسرعة، ويطلقون بسرعة وأنا أريد لك أن تعودى إلى ذويك حرة مستقلة، لكى تنظرى حولك فى دنيا ما بعد الحرب، وتقررى ماذا تريدينه منها.. وإذا قدر لنا أن نتزوج. فأننى أريد لزواجنا أن يدوم..

– لقد فهمت وجهة نظرك يا تشارلس.. وفى استطاعتك أن تأتى لزيارتى عندما تعود إلى إنجلترا.. ذلك إذا لم تكن قد عدلت عن رأيك.

– هذا ما لن يحدث.

– لا تجزم بأمر يا تشارلس.. إن أتفه شىء قد يبدد أعز الأحلام ويطيح بأجمل الأمنيات.. ثم أنك لا تعرف شيئًا عنى.. أليس كذلك؟؟

– الواقع أننى لا أعرف حتى عنوانك فى إنجلترا.

– إننى أقيم فى «سونيلى دين».

وكنت أعلم أن سونيلى هى أبعد ضواحى لندن، وبها ثلاث ساحات كبيرة للعب الجولف، يختلف إليها رجال المال والأعمال لممارسة هوايتهم المفضلة.

واستطردت صوفيا وهى مستغرقة فى التفكير.

–.. فى بيت صغير مشوه..

ولاحظت دهشتى فقالت تردد أغنية معروفة من أغنيات الأطفال.

– «.. وكان ثلاثتهم يعيشون فى بيت صغير مشوه..»

هذا البيت الصغير كله أبراج.. ونحن جميعاً نقيم فيه..

- هل لك أسرة كبيرة؟

- كبيرة!! إنها تتألف من أخ وأخت وأب وأم وعم وزوجة عم، وجد.. وزوجته، وشقيقة للجدة.

فصحت مبهوتاً..

- يا إلهى!!

فضحكت وقالت: والجميع يعيشون فى كنف الجد.. وهو رجل فى الثمانين من عمره لا يزيد طوله على مائة وخمسين سنتيمتر.. ولكنه رجل يتضاءل أمامه كل الرجال.

- لابد أنه له شخصية قوية.

- نعم.. إنه يونانى من أزمير ويدعى ارستيد ليونيدس.

ثم غمزت بعينها واستطردت قائلة: وهو واسع الثراء.

- وهل سيكون فى الدنيا أثرياء بعد هذه الحرب.

- إن جدى ثرى وسيظل ثرياً مهما وضعوا من قيود على رؤوس الأموال. إنه يعرف كيف يقلم أظافر من يحاول أن يقلم أظافره.

وصمتت قليلاً ثم أردفت قائلة:

- إننى أتساءل.. ترى هل ستحبه!!

- وهل تحبينه أنت؟!

- أكثر من أى إنسان آخر فى هذه الدنيا.

افتراق ولقاء

ومـر عـامـان قـبل أن أعـود إلى إنجلترا..

عامان طويلان كنت خلالهما أكتب إلى صوفيا وكانت تكتب إلى..

كنا نتراسل لا كعاشقين يتطارحان الحب. وإنما كصديقين عزيزين يجدان متعة فى تبادل الآراء وتسجيل انطباعاتهما مما يعرض لهما فى حياتهما اليومية.. ولكنى رغم ذلك كنت أعلم أن مشاعرى نحوها لم تتغير، وكان لدى من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأن مشاعرها هى أيضاً لم تتغير.

وقد وصلت إلى إنجلترا فى يوم غائم من أيام شهر سبتمبر، وكان النسيم عليلاً، وأشعة الشمس الغاربة تصبغ أوراق الشجر بلون الذهب.. فأرسلت من المطار البرقية التالية إلى صوفيا:

«وصلت الآن، هل تتناولين معى طعام العشاء فى التاسعة مساء بمطعم ماريو؟»

تشارلس

وبعد ساعتين، كنت أتصفح جريدة «التايمز» فوقع بصرى فى

صفحة الوفيات على النعى التالى:

«تنعى بريندا لونيدس ببالغ الحزن والأسى زوجها أرستيد ليونيدس الذى توفى فى «سونيلى دين» يوم ١٩ سبتمبر عن خمسة وثمانين عاماً».

وتحت هذا النبأ مباشرة، قرأت الإعلان التالى:

«ينعى أولاد أرستيد ليونيدس المأسوف عليه عميد الأسرة، الذى توفى فجأة بقصره «القبات الثلاث بضاحية سونيلى دين، والعزاء بكنيسة «سانت أيلدريد» بالضاحية المذكورة».

وأدهشنى هذا «الازدواج» فى نشر النعى، ورددته إلى خطأ مطبعى من جانب الجريدة.. وأرسلت إلى صوفيا على الفور هذه البرقية..

«علمت فى التو واللحظة نبأ وفاة جدك، تقبلى عزائى.. متى سأستطيع مقابلتك؟».

تشارلس

وأجابت صوفيا ببرقية وصلتنى فى السادسة مساء بعنوان عند أبى، وقد جاء بها.

«سأكون بمطعم ماريو فى الساعة التاسعة».

صوفيا

* * *

كان مجرد التفكير فى أننى سأراها كافياً لأن يشد أعصابى، فلم أستقر على حال إلى أن دنا موعد اللقاء فذهبت إلى مطعم ماريو فى

الساعة الثامنة وأربعين دقيقة وتأخرت صوفيا عن الموعد نحو عشرين دقيقة أخرى، وكان ظهورها مفاجأة لى تختلف عما توقعته، فقد كانت ترتدى ثوباً أسود، وعلى الرغم من أن ذلك كان أمراً طبيعياً، إلا أنه فجأنى إذ لم أتصور قط أن صوفيا ترتدى ثوب الحداد حتى من أجل أعز الناس عليها.

تناولنا بعض أقداح الكوكتيل، وتناقلنا أنباء أصدقائنا فى القاهرة وتحدثنا طويلاً فى أمور كثيرة لا أهمية لها، ولكن الحديث أزال ما كنا نشعر به من حرج، ولما عبرت لها عن أسفى لموت جدها قالت إن موته لم يكن متوقعاً، ثم عادت إلى الحديث عن القاهرة وبدأت أشعر بالقلق فقد خيل إلى أن أحاديثنا تفتقر إلى الصراحة والإخلاص وخطر لى أن صوفيا ربما عرفت رجلاً آخر ظفر بقلبها من دونى.. أو لعلها اكتشفت أنها أساءت فهم حقيقة مشاعرها نحوى. وقد ظللت نهبة الشك والقلق إلى أن حمل إلينا الخادم أقداح القهوة فحينئذ ذاب الجليد دون أية محاولة من جانبى وجدتنى أجلس بجوار صوفيا أمام مائدة صغيرة فى أحد المطاعم كسابق العهد بنا.. كما لو كنا لم نفترق طوال العامين الآخرين، فهتفت باسمها فى همس:

- صوفيا!

- تشارلس!!

قالت ذلك بالصوت العذب الذى رجوت أن أسمعه، فتنهدت بارتياح وهتفت قائلاً: أخيراً!!

وابتسمنا.

فسألتها: متى سنتزوج؟

فتلاشت الابتسامة عن شفتيها وأجابت:

- لا أعلم يا تشارلس.. بل لست على يقين من أننى سأقترن بك يوماً ما.

- لماذا يا صوفيا؟ هل ترين أننى تغيرت وأنك بحاجة إلى بعض الوقت لكى تألفينى؟ هل تحبين شخصاً آخر؟

فهزت رأسها ببطء وأجابت: كلا.

وانتظرت مزيدًا من الإيضاح فقالت على الفور:

- بسبب موت جدى.

- ماذا تعنيين؟ أن موته لا يغير شيئاً.. وإذا كنت تفكرين فى موضوع المال فإن.. فقاطعتنى:

- كلا.. لست أعنى ذلك.

واستطردت بعد قليل وعلى شفتيها ابتسامة يائسة:

- أنا أعلم جيداً أنك ستقترن بى حتى ولو لم أكن أملك درهماً واحداً.. ومع ذلك فإن جدى لم يفقد أمواله وقد ترك ثروة كبيرة.

- إذن؟!

- المسألة هى أنه لم يمت كما يموت سائر الناس.. وأنا أعتقد أنه قتل.

- وماذا يحملك على هذا الاعتقاد؟

- أنا لست الوحيدة التى تعتقد ذلك.. لقد رفض الطبيب توقيع شهادة

الوفاة.. وسيجرى تشريح الجثة. وهذا دليل على أن هناك بعض الشك.

ولم يكن فى نيتى مناقشتها فإنها من الذكاء بحيث تعرف ما تقول.. قلت لها:

– هذا الشك ربما لا يقوم على أساس. وحتى لو كان على أساس فما علاقته بنا؟

– هل أنت واثق مما تقول.. هل نسيت أنك تعمل فى السلك الدبلوماسى. وأن اختيار الزوجة عامل أساسى له تأثيره على مستقبل الرجل الدبلوماسى؟ أنا أعرف الإجابة التى تتحير على شفتيك وتريد أن تنطق بها.. ولكنى أرجوك ألا تفعل.. إنها إجابة يمليها واجب الأدب والمجاملة.. وربما كانت بالنسبة إليك تعبر بصدق عن حقيقة شعورك وتفكيرك.. وأنا أقرك عليها من حيث المبدأ. ولكنى امرأة تعتز بكبريائها. ولا تريد لزواجها أن يتعرض للقيل والقال.. أو أن يتطلب منك تضحية أو شبه تضحية.. وعلى كل حال فإنه من المحتمل جداً أن ينتهى الأمر بسلام.

– هل تعنين أن الطبيب ربما كان مخطئاً؟

– على فرض أنه لم يخطئ وكان هناك قاتل من الخارج فإن الأمر سوف ينتهى بسلام.

ولم أفهم ما تعنى فمضت تقول:

– كان رهيباً ما ذكرته الآن.. أليس كذلك؟ ولكنى أرى أن الصراحة أجدى وأفضل.

وأدركت السؤال الذى يتحير على شفتى، وأجابت عليه قبل أن

أنطق به، قالت:

– كلا يا تشارلس، لا أستطيع أن أزيدك ايضاحا، بل ربما أكون قد قلت لك فعلاً أكثر مما ينبغى.. إننى ما جئت الآن إلا لكى أقول لك أننا لن نستطيع أن نقطع برأى فى أمر زواجنا قبل أن يماط اللثام عن سر مصرع جدى.

– ألا تزيديننى إيضاحاً يا صوفيا؟

– كلا يا تشارلس.. فلست أريدك أن ترى الأمور من وجهة نظرى. يجب أن تنظر إلينا بلا تحيز.. كأى إنسان غريب لا صلة له بنا من قريب أو بعيد.

– وكيف أستطيع ذلك؟

فتألقت عيناها الزرقاوان وقالت: ستعرف من أبيك.

وكنت ونحن فى القاهرة قد ذكرت لصوفيا أن أبى يعمل نائباً لمدير «اسكتلنديارد». وكان لا يزال يشغل هذا المنصب.

وأزعجتنى عبارتها الأخيرة، وسألتها:

– هل الأمر بهذا السوء؟

– أظن ذلك.. هل ترى الرجل الذى يجلس وحيداً أمام المائدة بالقرب من الباب؟ يبدو أنه أحد رجال الشرطة.

– يخيل إلى ذلك..

– إنه كان على رصيف محطة «سويتلى دين» عندما ركبت القطار إلى لندن.

– هل تعقبك؟

– نعم.. وأكبر الظن أننا جميعاً تحت المراقبة. لقد ألمحوا لنا بأن من الأفضل ألا نغادر البيت ولكنى جازفت لكى أراك.

وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة:

– لقد خرجت من نافذة الحمام وهبطت على أنابيب الماء..

– يا إلهى؟؟

– ولكن البوليس كان ساهراً.. ولا شك أنهم قرأوا البرقية التى بعثت بها إلى.. مهما يكن الأمر فها نحن هنا معا.. وذلك هو المهم. ولكن من سوء الحظ أنه يجب من الآن أن يلعب كل منا دوره على انفراد، أنت من جانبك وأنا من جانبى.. وأقول من سوء الحظ لأننا مازلنا متحابين.

– أصغى إلى يا صوفيا، أننا، أنت وأنا– قد عشنا معا حرباً عالمية، ورأينا معا الموت عن قرب، فلا معنى الآن لأن يؤدى موت رجل عجوز.. بهذه المناسبة.. كم كان عمره؟

– خمسة وثمانون عاماً..

– تماماً.. كما ذكرت صحيفة التايمز.. لقد بلغ من السن عتيا.. ومات بسبب الشيخوخة.

ـ ذلك ما يجب أن يقرره أى طبيب يعرف واجباته.

– لو أنك عرفت جدى.. لأدهشك أن يموت لأى سبب كان.

تحليلات الجريمة

كنت دائماً أهتم بالتحقيقات البوليسية التى يشرف عليها أبى، ولكنى لم أتوقع أن يثير أحد هذه التحقيقات اهتمامى لأسباب شخصية.

ولم أكن قد رأيت أبى منذ عودتى، فإنه لم يكن بالبيت عندما وصلت إليه واغتسلت واستبدلت ثيابى وانطلقت للقاء صوفيا.

ولما عدت من هذا اللقاء أنبأنى جلوفر- كبير الخدم- بأن أبى فى مكتبه.. فذهبت إليه، ووجدته منهمكا فى قراءة أوراق أمامه، ولم يكد يرانى حتى انبعث واقفاً وهتف مرحباً.

- تشارلس!! هانتذا أخيراً!!

كان ذلك أول لقاء بيننا منذ خمس سنوات. وعلى الرغم من أن ترحيبه بعودتى لم يتجاوز هذه الكلمات الثلاث، إلا أن تأثره لم يكن أقل من تأثرى.

كان كل منا يحب الآخر ويفهمه تماماً.

قال وهو يسكب الشراب فى كأس:

– لدى هنا بعض الويسكى.. فاشرب منه كفايتك.. يؤسفنى أننى لم أكن بالبيت لكى أستقبلك عند عودتك.. ولكنى مثقل بالعمل.. ولم أكن بحاجة إلى القضية المزعجة الجديدة التى منيت بها اليوم..

فسألته: هل تعنى قضية أرستيد ليونيدس؟

فتفرس فى وجهى لحظة، ثم قطب جبينه وسأل:

– ماذا حملك على أن تقول ذلك يا تشارلس؟

– ألست على صواب؟

– كيف علمت؟

– من أحد المصادر.

فظل يحملق فى وجهى انتظاراً لمزيد من الإيضاح فقلت:

– من مصدر موثوق به.

– ما هذا المصدر؟

– قد لا يسرك أن تعرفه.. ولكن لا مناص من أن أفضى إليك بالحقيقة.. إننى تعرفت على صوفيا ليونيدس فى القاهرة وأحببتها وأعتزم الاقتران بها. وقد قابلتها الليلة وتناولنا طعام العشاء معاً.

– هنا؟ فى لندن؟ كيف فعلت ذلك؟ لقد طلبنا إلى أفراد الأسرة– بأدب طبعاً– ألا يبرحوا البيت.

– أعلم ذلك. ولكنها خرجت من نافذة الحمام وهبطت على أنابيب

الماء.

فارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال:

- يخيل إلى أنها فتاة ذكية.

- هو ذلك.. ولكن البوليس لم يغفل عنها، فقد تبعها أحد رجالك إلى المطعم.. ومن المحقق أنه سيذكرنى فى تقريره إليك.. وسيقول أن صوفيا ليونيدس هربت من البيت وقابلت شاباً أسود الشعر والعينين طوله ١٧٥ سنتيمترا.. يرتدى ثوباً رمادياً.. إلخ.

فرمقنى أبى بنظرة فاحصة وقال:

- حدثنى يا تشارلس.. هل أنت جاد فى مشروع الزواج؟

- نعم.. يا أبى..

فأطرق برأسه مفكراً ولزم الصمت.

سألته: هل يضايقك ذلك؟

- إنه ما كان يضايقنى لو أننى علمت به منذ أسبوع. فالأسرة كريمة. والفتاة سترث ثروة طائلة.. أما فى الظروف الحالية..

- ماذا؟

- من المحتمل أن لا تجرى الأمور على ما تهوى لو..

- لو..؟

- لو ثبت أن القاتل من غير أفراد الأسرة..

وأثارت هذه العبارة فضولى.. فلقد سمعتها مرتين فى تلك الليلة.

سألته: ماذا تعنى؟

فرمقنى مرة أخرى بتلك النظرة الفاحصة وقال:

- ماذا تعرف بالضبط عن القضية؟

- لا شىء.

- لا شىء؟ ألم تحدثك الفتاة عنها؟

- كلا.. قالت أنها تفضل أن أنظر إليها بلا تحيز . كأى غريب لا صلة له بالأسرة.

- ليتنى أعلم لماذا..

- أليس السبب واضحاً؟

فلم يجب، ونهض عن مكتبه، وراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وهو مطرق برأسه، ثم سألنى فجأة:

- ماذا تعلم عن هذه الأسرة يا تشارلس؟

- أعلم أنها تتألف من الجد ومجموعة من الأولاد والأحفاد والأقارب والأنسباء.. ولكنى لا أعرف تماماً صلة كل منهم بالآخر. حبذا لو زدتنى معرفة بهم.

فعاد إلى مقعده أمام المكتب وقال:

- حسناً.. سأبدأ من البداية.. لقد جاء أرستيد ليونيدس إلى إنجلترا وهو فى الرابعة والعشرين من عمره.

- كان يونانياً من أزمير..

– آه.. أتعلم ذلك؟

– نعم، هذا تقريباً هو كل ما أعلمه عنه.

وفى هذه اللحظة، فتح باب الغرفة، وأطل منه جلوفر ليعلن قدوم المفتش تافرنر.. فقال أبى:

– إنه المفتش المنوط بتحقيق القضية. سأسمح له بالدخول.. لقد تحرى عن الأسرة وأصبح يعرف عنها أكثر مما أعرف.

فسألته عما إذا كان البوليس المحلى فى ضاحية «سوينلى دين» هو الذى طلب معونة اسكتلنديارد.

فأجاب: كلا.. إن سوينلى دين تقع فى نطاق عملنا، لأنها من ضواحى لندن.

وكنت أعرف المفتش تافرنر منذ سنوات عديدة، فشد على يدى بحرارة، وهنأنى بالخروج سالماً من الحرب.. فقال له أبى:

– كنت أحدث تشارلس عن أرستيد ليونيدس. فأرجوك أن تصحح معلوماتى إذا أخطأت.

ثم التفت إلى وقال: جاء ليونيدس إلى لندن سنة ١٨٨٤، وافتتح مطعماً صغيراً فى حى «سوهو» وحالفه التوفيق فادخر بعض المال، وافتتح مطعماً آخر ثم مطعما ثالثاً.. وهكذا حتى أصبح يمتلك سبعة أو ثمانية مطاعم تعمل كلها بنجاح.

فقال تافرنر:

– ومن عجب أنه لم يقع طوال هذا الوقت فى أى خطأ.

واستطرد أبى قائلاً:

- كان رجل أعمال بالغريزة، وما لبث أن حول اهتمامه إلى مطاعم لندن غير المعروفة. فراح يبتاعها ويعيد تنظيمها.. ثم بدأ يهتم بتجارة المواد الغذائية على نطاق واسع.

فقال تافرنر:

- كان اهتمامه موزعاً فى مجالات كثيرة.. كتجارة الملابس المستعملة، والمجوهرات المقلدة..

فسألته:

- هل كان محتالاً؟

فهز المفتش رأسه وأجاب:

- كلا.. كان فطناً ذكيا يعرف كيف ينفذ من ثغرات القانون ولكنه لم يرتكب قط ما يوقعه تحت طائلة العقاب.

كان إذا بدأ عملاً، استغل قصور القوانين التى تحكمه، فإذا تدارك المشرعون هذا القصور، ترك هذا العمل إلى عمل آخر.. وهكذا.. واستطاع بذلك أن يجنى أرباحاً طائلة خلال سنى الحرب.

فقلت:

- يخيل إلى أنه كان شخصية مقيتة.

فأجاب أبى:

- بل كان على العكس من ذلك.. صحيح أنه كان من حيث المظهر قزماً دميماً.. ولكنه يتمتع بشخصية جذابة حببته إلى النساء. وقد وفق

فى زواجه إذ اقترن بابنة رجل محترم من تجار الفراء.

- زواج مصلحة طبعاً..

- بل زواج حب، أنها قابلته ذات ليلة بينما كانت تشرف على إعداد مأدبة لمناسبة خطوبة إحدى صديقاتها فأحبته وصممت على الاقتران به رغم معارضة ذويها.. ذلك لأنه كان لبقاً ظريفاً.. بينما كانت هى تعانى من السأم والملل فى بيت أسرتها.

وهل كان الزواج سعيداً؟

إلى أبعد حدود السعادة.. رغم أن أصدقاءهما قاطعوهما.. إذ لم يكن المال قد أزال الفوارق بين الطبقات بعد، ولكنهما لم يعبأ بقطيعة الأصدقاء.. وشيدا بيتهما فى «سوينلى دين»، وعاشا سعيدين.. ورزقا بأولاد كثيرين.

- كما فى الأساطير!!

- لقد كان ليونيدس موفقاً غاية التوفيق حين وقع اختياره على سوينلى دين ولم يكن فى هذه الضاحية، سوى ساحة واحدة للجولف، ولكنها أخذت تزدهر، وتتخذ طابع الضواحى الراقية.. وكان أهلها يتألفون من السكان الأصليين الذين يقيمون فيها منذ وقت طويل، ويعنون أشد العناية بحدائقهم.. ومن رجال المال والأعمال الذين يتوقون إلى التعامل مع ليونيدس، وهكذا أتيحت لليونيدس وزوجته فرصة لاختيار من يروقهم من الأصدقاء.. وعاشا فى سعادة تامة إلى أن أصيبت الزوجة بالتهاب رئوى وتوفيت فى سنة ١٩٠٥.

- وتركت لزوجها ثمانية أولاد.. أليس كذلك؟

– لقد مات أحد هؤلاء الأولاد وهو طفل وقتل اثنان فى الحرب العالمية الأولى، وتزوجت إحدى الفتيات وهاجرت إلى استراليا حيث توفيت.. وقتلت فتاة أخرى فى حادث سيارة، وماتت فتاة ثالثة منذ عام أو عامين.. ولم يبق على قيد الحياة سوى الابن الأكبر ويدعى روجر وهو متزوج ولم يرزق بأولاد وابن آخر يدعى «فيليب» وهو متزوج من ممثلة معروفة وله منها ابنتان، إحداهما هى صوفيا التى حدثتنى عنها، والثانية تدعى جوزفين.. وولد يدعى أوستاش.

– وهل يقيمون جميعاً فى بيت «القباب الثلاث»؟

– نعم. كان روجر يقيم فى لندن.. ولكن قنبلة سقطت على بيته فى بداية الحرب فهدمته.. فانتقل إلى بيت «القباب الثلاث».

وفى هذا البيت تقيم أيضاً الآنسة أديث دى هافيلاند، شقيقة الزوجة الأولى لأرستيد ليونيدس.. وكانت أديث تكره أرستيد وتحتقره، فلما ماتت أختها، رأت من واجبها أن تقبل دعوة أرستيد حين دعاها للإقامة عنده والإشراف على تربية الأولاد.

فقال المفتش تافرنر:

– كانت تحترم واجباتها ولكنها لم تكن من أولئك الذين يغيرون آراءهم فى الناس، فظلت تحتقر ليونيدس وتدين وسائله وأساليبه.

فقلت:

– صفوة القول أن البيت حافل بالناس.. فمن تظنه القاتل؟

فهز المفتش كتفه وأجاب:

- إننى لم أقطع برأى بعد.. ذلك سابق لأوانه..

- أراهن على أنك تعرف القاتل.. أذكره لنا بصفة خاصة أيها الصديق.. نحن لسنا فى المحكمة.

- نعم.. نحن لسنا فى المحكمة ومن المحتمل ألا نذهب إليها أبداً.

- هل معنى ذلك أن العجوز لم يقتل؟

- بل إنه قتل.. ولكن جرائم القتل بالسم تتشابه كلها فى تعذر إقامة الدليل.. وأن تكن القرائن كلها تشير إلى شخص بعينه.

فصحت:

- هو ذا اعتراف صريح بأنك تعرف القاتل.

- قلت أن هناك قرائن قوية.. ولكن لا يوجد دليل.. وأنا لست على يقين.

فنظرت إلى أبى ملتمساً معونته فقال ببطء:

- جرت العادة فى جرائم القتل أن يكون أوضح الحلول هو فى الغالب أصوبها.. ولعلك لا تعلم يا تشارلس أن ليونيدس اتخذ لنفسه زوجة أخرى منذ عشرة أعوام..

- وهو فى الخامسة والسبعين من عمره؟

- نعم.. وكانت الزوجة الجديدة فى الرابعة والعشرين من عمرها.

فلم أتمالك من أن أصفر بشفتى دهشة وقلت:

- وأى نوع من النساء هى؟

– فتاة صغيرة محترمة وجميلة كانت تعمل مضيفة فى أحد مشارب الشاى.

– هل هى التى تحوم حولها أقوى الشبهات؟

فأجاب تافرنر:

– طبعاً.. إنها فى الرابعة والثلاثين.. أخطر فترة فى حياة المرأة. وهى مولعة بالترف.. وفى البيت شاب فى مقتبل العمر يعمل مدرساً للأولاد.. ولم يشترك فى الحرب بدعوى أنه مريض بالقلب. أو ما يشبه ذلك..

– وما نوع السم الذى استخدم فى الجريمة؟

هل هو الزرنيخ؟؟

– كلا.. إننا لم نتلق بعد تقرير معمل تحاليل المواد السامة.. ولكن الطبيب يعتقد أن السم الذى استخدم فى الجريمة هو «الايزيرن».

– إنه سم غير مألوف.. وأعتقد أنه ليس من الصعب معرفة الشخص الذى اشتراه.

– هذه ليست المشكلة.. فصاحب الايزيرين هو ليونيدس نفسه.. وكان يستخدمه كقطرة لعينيه.

فقال أبى:

– كان ليونيدس مريضاً بالسكر. وكان يحقن بالأنسولين بانتظام.. والأنسولين يباع عادة فى قنينة صغيرة لها سدادة من المطاط، والطريقة المتبعة هى أن تملأ الحقنة بمادة الأنسولين من خلال

السدادة.. ثم يحقن المريض.

– فهمت.. كانت القنينة التى استخدمت فى يوم الحادث مليئة بالايزيرين بدلاً من الأنسولين.. أليس كذلك؟

– تماماً.

– ومن الذى حقن ليونيدس؟

– زوجته الشابة..

وهنا فقط فهمت ماذا كانت صوفيا تعنى حين قالت أن الأمر سوف ينتهى بسلام إذا كان القاتل من خارج الأسرة.

سألت:

– وهل الأسرة على وفاق مع زوجة ليونيدس؟

– كلا.. إنهم لا يتبادلون الحديث إلا نادراً.

كان كل شىء يبدو واضحاً، فالقرائن كلها تأخذ بتلابيب الزوجة الشابة.. ورغم ذلك كانت تبدو على المفتش تافرنر دلائل الشك والتردد. فسألته:

– يخيل إلى أن هناك ما يقلقك.

فأجاب:

– نعم.. فثمة شىء يتعذر على فهمه.. إذا كانت الزوجة هى الجانية حقّا.. فلماذا لم تبادر إلى استبدال قنينة الأيزيرين بأخرى تحتوى على أنسولين؟ كان من السهل عليها أن تفعل ذلك.

- هل يوجد أنسولين بالبيت؟

- يوجد كثير من القنانى المليئة والفارغة.. ولو قد فعلت لما لاحظ أحد شيئاً.. ذلك لأن الايزيرين لا تظهر له أعراض أو آثار على جثة الميت، وكل ما حدث فى هذه القضية أن الطبيب فحص محتويات القنينة التى حقن منها ليونيدس لكى يتحقق مما إذا كان الأنسولين مركزاً أكثر مما ينبغى. فاكتشف أن المادة التى بالقنينة ليست أنسولين.

فقلت:

- يخيل إلى أن الزوجة الشابة أما ذكية جدًا.. أو غبية جدًا..

-هل تعنى..

- أعنى أنها ربما اعتمدت على أنكم لن تعتقدوا أن القاتل يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الغباء بحيث لا يبادر إلى استبدال القنينة التى تحتوى على السم بأخرى تحتوى على الأنسولين.. هل هناك احتمالات أخرى يا مستر تافرنر أعنى هل تحوم الشبهات حول أى شخص آخر؟

فتصدى أبى للإجابة على هذا السؤال وقال:

- من الناحية العملية.. جميع أفراد الأسرة تحوم حولهم الشبهات. فإن البيت لم يخل قط من رصيد من الأنسولين يكفى لأسبوعين.. ولم يكن أيسر من ملء إحدى القنانى بالأيزيرين ووضعها مع قنانى الانسولين.. والانتظار حتى تستخدم فى أحد الأيام.

- وهل صيدلية البيت فى متناول الجميع؟

- إنهم لا يغلقون صندوق العقاقير.. وقنانى الأنسولين مرتبة به فى صف واحد.. والصندوق نفسه موضوع فى الحمام.

- والدافع إلى الجريمة؟

فتنهد أبى وأجاب:

يا عزيزى تشارلس.. إن ليونيدس كان واسع الثراء. صحيح أنه أعطى ذويه كثيراً من المال.. ولكن يحتمل أن يكون أحدهم أو بعضهم قد طمع فى المزيد.

- ويحتمل أن يكون هذا الطامع هو أرملته.

- ولكن صديقها.. هل هو غنى؟

فأجاب تافرنر:

- إنه أفقر من فأر الكنيسة.

ولفت نظرى هذا التشبيه، وتذكرت فجأة أغنية الأطفال التى رددت صوفيا مقطوعة منها.

«كان هناك رجل مشوه..

«يسير فى طريق مشوه..

«فوجدا بيتاً مشوهاً، على حافة قناة مشوهة..

«وبالبيت كانت قطة شوهاء.. قد اصطادت فأرا مشوها..

«فعاش ثلاثتهم معاً.. فى البيت المشوه؟

* * *

سألت تافرنر:

- ماذا كان انطباعك عن مسز ليونيدس الشابة؟؟ ما رأيك فيها؟

ففكر تافرنر طويلاً قبل أن يجيب:

- ليس من السهل معرفة امرأة من هذا الطراز.. إنها هادئة جدًا.. وديعة جدًا.. ولكن من المتعذر معرفة ما يدور بخلدها.. كل ما أستطيع أن أقوله.. هو أنها مولعة بالترف والحياة الرغدة.. وقد ذكرنى مرآها بقطة خاملة مدللة.. ولكن هذه الأوصاف لا تقدم ولا تؤخر.. إن ما نحتاج إليه هو الدليل

* * *

وكنت أرى هذا الرأى..

أن ما نحتاج إليه، هو الدليل على أن مسز ليونيدس الشابة سممت زوجها.

كانت صوفيا تريد هذا الدليل... وكذلك تافرنر.. وأنا فإذا وضعنا أيدينا على هذا الدليل.. ظهرت الحقيقة واستقامت الأمور.

والمشكلة هى أن صوفيا لم تكن واثقة من شىء..

ـ وكذلك تافرنر.. وأنا.



القباب الثلاثة

فى اليوم التالى، ذهبت مع تافرنر إلى البيت ذى القباب الثلاث.. كان موقفى عجيباً.. أو على الأقل، غير مألوف.

كنت فى بداية الحرب أعمل فى المخابرات بإدارة مكافحة الجاسوسية، وكان فى استطاعتى عند الضرورة أن أزعم أننى شرطى. أما الآن فإن الموقف يختلف تماماً.

كان أبى قد قال لى فى الليلة السابقة:

– إذا أردنا أن ننجح فى حسم هذه القضية. فيجب علينا أن نبدأ من الداخل.. وأن نعرف كل شىء عن أفراد الأسرة، وإذا كان هناك إنسان يستطيع موافاتنا بالمعلومات التى نريدها فهو أنت.

فلم أتمالك نفسى من الشعور بالاستياء وأجبت:

– معنى ذلك أن أعمل جاسوساً؟

ـ إننى أحب صوفيا. وأعتقد أنها تحبنى.. فكيف أستغل هذا الحب للتسلل بين أفراد الأسرة والبحث عن أسرارهم!!

فهز أبى كتفيه وقال بشىء من الضيق:

- لا تنظر إلى الأمور بطريقة أصحاب الحوانيت الصغيرة. هل ترتاب فى أن تكون صديقتك قد قتلت جدها؟

- أنا واثق من أنها لم تقتله.

- ذلك رأيى أيضاً.. ولكن ثمة شىء مؤكد.. هو أنك لن تقترن بهذه الفتاة طالما أن القضية لم تحل، وطالما أن الشك يحوم حول كل فرد من أفراد الأسرة..

وهذه الجريمة من الجرائم التى قد لا تصل يد العدالة إلى مرتكبها..

ومن المحتمل أن تتحول ريبتنا فى الأرملة وصديقها إلى يقين.. ولكننا نجد أنفسنا رغم ذلك عاجزين عن عمل شىء.. لأننا لا نملك الدليل.

نحن حتى هذه اللحظة لا نستطيع أن نوجه إليها أى اتهام هل فهمتنى؟

- نعم.. ولكن..

غير أنه لم يكلف نفسه عناء الإصغاء إلى ومضى يقول:

- أليس من الأفضل فى هذه الحالة أن تعرض الموقف على صوفيا بوضوح وتستطلع رأيها؟

* * *

وهكذا ذهبت مع المفتش تافرنر والضابط لام لزيارة البيت ذى القباب الثلاث. واخترقت بنا السيارة ساحة الجولف المترامية أمام

البيت.

* * *

كانت صوفيا قد وصفت البيت بأنه مشوه، وقد وجدت عندما وقع بصرى عليه من ذلك أصدق وصف له..

لم يكن بيتاً ذا ثلاث قباب كما أسموه.. فقد أحصيت إحدى عشرة قبة.. يتألف منها منظر عجيب..

كان البيت أشبه بنبات شيطانى برزت أغصانه فى كل اتجاه بلا نظام.

قال المفتش تافرنر وهو يتأمل البيت:

- بيت غريب.. أليس كذلك؟ ولكنه مؤثث كأفخم القصور العصرية.

ولم يتسع لى الوقت للإجابة، فقد رأيت صوفيا تخرج من الباب الرئيسى، وما أن وقع بصرها على حتى هتفت:

- أنت؟

فأجبت:

- نعم.. هل أستطيع التحدث إليك؟

فترددت لحظة قبل أن تتخذ قراراً، ثم أومأت إلى أن أتبعها:

وسارت بى فى الحديقة إلى مقعد خشبى بين الأشجار وهناك جلست، ودعتنى إلى الجلوس بجوارها، وقالت وهى تنظر بعيداً:

- حسنا؟؟

ولم يكن فى صوتها ما يشجع...

. ولكنى تحدثت إليها فى صراحة وإسهاب، وأصغت إلى باهتمام، حتى إذا فرغت من حديثى، تنهدت وقالت:

- إن أباك رجل حكيم.

- هذه فكرته.. وأنا شخصياً لا أقره عليها..

- إنها فكرة وجيهة.. ولعلها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى نتيجة.

إن أباك يفهم وجهة نظرى أكثر مما تفهمها أنت يا تشارلس أنه ليهمنى جدّا أن أعرف الحقيقة..

- من أجل مستقبلنا؟ إنها لن تقدم أو تؤخر بالنسبة إلينا.

- ليس من أجل مستقبلنا فقط يا تشارلس.. إننى لم أجسر على مصارحتك بالحقيقة أمس.. الحقيقة هى أننى لم أشعر بالخوف.

- الخوف؟

- نعم.. الخوف.. إن القاتل.. على ما يعتقد البوليس، ويعتقد أبوك، وتعتقد أنت هو بريندا.. زوجة جدى.

- جميع القرائن.

- هذا صحيح.. ولكنى عندما أقول «أن بريندا هى القاتل».. أشعر بأننى لا أعبر عما أعتقده.. وإنما أعبر عما أتمناه.

- هل تظنين أن..

- أنا لا أظن شيئاً.. ولكنى أشعر فى قرارة نفسى بأن بريندا، ليست المرأة التى تجازف بارتكاب جريمة كهذه. إنها أعقل وأبعد نظراً من أن تفعل ذلك.

- على فرض أنك على صواب.. فما قولك فى لورانس براون.. الشاب الوثيق الصلة بها.

- لورانس؟ أنه أخوف من أرنب.

- من أدراك؟

- الواقع.. أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بشىء.. فنحن كثيراً ما نخدع بالظواهر. ولكنى مع ذلك لا أعتقد أن بريندا قد ارتكبت الجريمة.. إنها خلقت لتعيش فى حريم أحد الأثرياء.. فهى تحب الترف والحياة الناعمة.. تحب الجلوس طوال الوقت على أريكة مريحة.. وتحب أكل الحلوى وارتداء الثياب الجميلة والمجوهرات الثمينة، وقراءة القصص والاختلاف إلى الملاهى ودور السينما.. هذه هى الحياة المثالية بالنسبة إليها.. وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أنها كانت تحب جدى رغم فارق السن بينهما.. ولابد أنه كان يشعرها بأنها المحظية المفضلة فى حريم السلطان.. كان رجلاً عجيباً ذا قدرة مذهلة على اجتذاب قلوب النساء ولا أظن أن الشيخوخة قد أضعفت مواهبه فى هذا الصدد.

- قلت منذ لحظة أنك تشعرين بالخوف.. لماذا؟

فأجابت بصوت خافت:

- لأن هذه هى الحقيقة.. والأمر الذى أريدك أن تعرفه هو أننا أسرة غريبة تتألف من أفراد قساة القلوب.. ولكنها **قسوة تختلف** عن حيث الشدة والنوع باختلاف الأشخاص..

ولابد أنها لاحظت من قسمات وجهى مبلغ دهشتى مما سمعت فاستطردت قائلة:

- سأوضح لك ما أعنى.. إليك مثلاً جدى.. لقد حدثنا ذات يوم كيف أنه قتل بخنجره رجلين فى أزمير لمجرد الظن بأنهما تعمدا إهانته.. قال لنا ذلك ببساطة كما لو كان قتل رجلين مسألة تافهة لا تستحق الندم أو التكفير.

كذلك كانت جدتى امرأة جامدة العاطفة.. نشأت بين صيادى الثعالب الذين لا يعرفون الرحمة فيما يتصل بالشرف ولا يتورعون عن قتل أقرب الناس إليهم برصاصة من بنادقهم لأتفه الأسباب.. فورثت صفاتهم وتطبعت بطباعهم.

- ألست تبالغين فى رسم هذه الصورة القاتمة لذويك؟

- كلا.. إن الإنسان يستطيع أن يكون شريفاً ومجرداً من الرحمة فى ذات الوقت، ولكن أمى تختلف عن الآخرين إنها لطيفة ولكنها أنانية إلى حد يثير فزعى فى بعض الأحيان.

أما كليمنسى، زوجة روجر، فإنها لا تعيش إلا لأبحاثها العلمية المعقدة، وتتمتع ببرود غير طبيعى وغير إنسانى، على عكس زوجها.. فأنه رجل لطيف دمث الخلق ولكنه إذا غضب تحول إلى شيطان مريد.

وأما أبى..

وصمتت لحظة.. ثم قالت:

- وأما أبى.. فإنه يعرف كيف يتحكم فى مشاعره بحيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما يدور بخلده أو يعتمل فى قرارة نفسه ولكنه يثير قلقى ومخاوفى فى كثير من الأحيان.

- هل أفهم من هذا أن كل فرد فى أسرتك يستطيع ارتكاب جريمة قتل؟

- نعم.. وأنا مثلهم.

- أنت؟

- ولم لا؟ إننى أشعر أحياناً بأننى أستطيع أن أقتل إنساناً.

وصمتت قليلاً ثم أردفت:

- فضحكت على الرغم منى، وابتسمت صوفيا وقالت:

- ربما كنت حمقاء.. المهم أننا يجب أن نميط اللثام عن الحقيقة وأن نعرف من الذى قتل جدى.

آه.. حبذا لو كانت بريندا هى القاتلة.

وفجأة. اتجه تفكيرى إلى بريندا. وشعرت نحوها بالعطف والإشفاق..



إشتباه فى تسمم

رأيت سـيـدة طويلة القـامـة تقـبل نحونا بخطى سريعة فقالت صوفيا فى همس:

– وها هى الخالة أديث.

واقتربت الخالة فنهضت واقفا، وقالت صوفيا تقدم كلا منا إلى الآخر.

– أقدم إليك تشارلس هيوارد يا خالتى.. هذه خالتى مس دى هافيلاند يا تشارلس.

كانت أديث دى هافيلاند تناهز السبعين.. قد خط الشيب شعرها، ولوحت الشمس بشرتها.

وسألتنى وهى تحملق فى وجهى بفضول:

– كيف حالك يا مستر هيوارد؟ لقد سمعتهم يتحدثون عنك، ويبدو أنك قادم من الشرق هل أبوك بخير؟

– نعم.. شكراً لك.

– إننى عرفته وهو طفل.. وكنت كذلك أعرف والدتك أنك قريب

الشبه منها.. هل جئت لمساعدتنا أو لعكس ذلك؟

فأحسست بالحرج وأجبت:

- أرجو أن أكون ذا فائدة لكم..

فأومأت برأسها علامة الرضى وقالت:

- هذا حسن.. إن البيت يعج برجال الشرطة.. إنهم يبحثون فى كل ركن.. ولبعضهم وجوه بغيضة ونظرات شريرة..

- إن «نانى» تبحث عنك.. لتعدى السمك فصاحت صوفيا..

- يا إلهى؟؟ كدت أن أنسى.. سأذهب إليها فوراً..

وانطلقت مسرعة فى الطريق إلى البيت وسرنا فى أثرها ببطء.

قالت العجوز:

- لولا نانى لضعنا جميعاً.. إنها الإخلاص مجسداً.. وهى تضطلع بكافة الأعمال.. تغسل الثياب وتطهو الطعام وتدير شئون البيت.. إنها خادمة لا مثيل لها فى هذه الأيام.. وأنا التى أخترتها.. منذ أعوام كثيرة.

وانحنت بسرعة لتلتقط حشرة علقت بذيل ثوبها. ثم اعتدلت وقالت:

- أود أن أصارحك يا تشارلس هيوارد بأن هذا الحادث قد ضايقنى كثيراً. إننى لا أطالبك بأن تذكر لى وجهة نظر البوليس. لأنه لا يحق لك أن تذكرها. ولكنى من ناحيتى لا أتمالك من الشعور بالألم كلما فكرت فى أن أرستيد قد مات مسموماً. بل وأتألم لمجرد التفكير

فى أنه مات. أنا لم أكن أحبه. ولكنى لا أستطيع أن أتصور أنه مات. لقد أصبح البيت بدونه خاوياً.

ولاحظت أن أديت دى هافيلاند تريد أن تفضى ببعض ذكرياتها فلزمت الصمت:

قالت:

– لقد جئت إلى هذا البيت منذ أكثر من أربعين عاماً.. جئت عقب وفاة أختى. وتلبية لرغبة أرستيد.. كانت أختى قد تركت له سبعة أولاد لا يزيد عمر أصغرهم عن عام فلم أشأ أن أترك أمر تربية هؤلاء الصغار لهذا الرجل اليونانى أفلم أكن على حق؟ صحيح أن أختى مارشيا قد أخطأت بزواجها من هذا الأجنبى.. ولكنى كنت أشعر دائماً بأن هذا الرجل الفظ الدميم لابد قد سحرها بطريقة ما.. وإحقاقا للحق أقول أنه أطلق يدى وترك لى حرية العمل فهيأت للأولاد الخدم والمربيات والطعام الجيد ولم أطعمهم قط ذلك الأرز المقيت المطهو بالتوابل الذى يحبه أبوهم.

– وهل بقيت معهم حتى بعد أن كبروا؟

– نعم.. وقد يبدو ذلك عجيباً ولكن هذا ما حدث.. وأعتقد أننى بقيت حبا فى الحديقة.. وأيضاً من أجل فيليب. إن الرجل الذى يقترن بممثلة. لا يستطيع أن يزعم أنه له زوجة وبيتاً.. وإنى لا تساءل لماذا تلد الممثلات؟ إنهن يتركن أولادهن وينطلقن للتمثيل فى دبلين أو جلاسجو.. أو فى أقصى الأرض. ولكنى أعتقد أن فيليب قد أحسن صنعاً حين قرر الإقامة هنا مع كتبه.

- ما هى مهنته؟

- إنه يكتب.. ولا أعلم لماذا.. فلا أحد يقرأ كتبه التى يسجل فيها أحداثاً تاريخية لا تهم أحدا.. هل قرأت له؟

فأجبت سلبا. فاستطردت قائلة: إن مصيبة فيليب أنه يملك أموالاً طائلة. ولو كان بحاجة إلى قوت يومه لبحث عن عمل جاد.

- وهل يربح كثيراً من كتبه؟

- ذلك أعجب ما فى الأمر، فبعض الناس يعتقدون أنه حجة فى حقبة من حقبات التاريخ.. بيد أنه ليس بحاجة إلى أرباحه من الكتب، فقد أراد أرستيد الإفلات من الضرائب وخاصة ضريبة التركات فمنح أولاده مبالغ طائلة تؤمن مستقبلهم.. وكان نصيب فيليب بضع مئات من آلاف الجنيهات. أما أخاه روجر فقد أسند إليه أرستيد إدارة الشركة المتحدة للمواد الغذائية، وأما صوفيا وجوزيفين وأوستاش فإن لكل منهم إيراداً لا بأس به من ريع الأسهم والسندات التى أودعت بأسمائهم.

- هل معنى ذلك أن موت الجد لا يفيد شخصاً بذاته..

- هل تهزل؟!

- إنه يفيديهم جميعا.. ويعود على كل منهم بمزيد من المال.

- من تظنيه قد سمم أرستيد ليونيدس يا مس دى هافيلاند؟ هل لديك فكرة؟

فأجابت دون أن تتردد:

– ليست لدى أية فكرة.. وذلك ما يضايقنى.. لأننى لا أحب أن أتصور أن بين أفراد الأسرة قاتلاً.. ولكننى أعتقد أن رجال البوليس يشتبهون فى بريندا المسكينة.

– أرى أنك تتكلمين بلهجة من يعتقد أن هذا الاشتباه فى غير موضعه.

– الواقع أننى لا أعلم شيئاً.. فقد كنت دائماً أنظر إلى بريندا كامرأة غبية ضحلة. وما هكذا فى تصورى تكون المرأة التى تقتل بالسم.

ومع ذلك فإن الإنسان حين يرى امرأة فى الرابعة والعشرين من عمرها تقترن برجل تجاوز الثمانين لا يسعه إلا الاعتقاد بأن المرأة تسعى وراء المال.. ومن المحتمل بطبيعة الحال أن تكون بريندا قد قالت لنفسها عقب الزواج أن زوجها لن يعيش طويلاً.. وأنها ستصبح عما قريب أرملة ثرية..

ولكن أرستيد كان قوى البنية، صلب العود، فلم يهزمه مرض السكر وكان من المتوقع أن يعيش حتى يبلغ المائة عام.

فمن المحتمل أن تكون بريندا قد سئمت الانتظار.

– إذا صح ذلك..

فلم تدعنى مس دى هافيلاند أتم عبارتى وقاطعتنى قائلة:

– إذا صح ذلك.. كان لنا ما نرجوه جميعاً.. صحيح أن الناس سيتكلمون. ولكن بريندا فى الواقع ليست من صميم الأسرة.

– أليست لديك أية نظرية أخرى؟

– كلا..

ترى هل قالت مس دى هافيلاند كل ما عندها؟

أظن أنها تعرف أكثر مما ذكرت.. ومن يدرى، فلعلها هى التى سمعت أرستيد ليونيدس.

ولم لا. لقد رأيتها منذ لحظة تنتزع الحشرة من ذيل ثوبها بحزم وقسوة.. مما ذكرنى بقول صوفيا، أن كل من بالبيت ذى القباب الثلاث قادر على ارتكاب جريمة قتل. بشرط أن تكون هناك أسباب وجيهة تبرر الجريمة.

ترى ماذا كان لدى أديث دى هافيلاند من أسباب؟

كان لابد لى أن أعرف المزيد من هذه العانس العجوز لكى أستطيع الإجابة على هذا السؤال.



الزوجة الغادرة

كان باب البيت مفتوحاً، فدخلنا، واجتزنا بهوًا فسيحاً ثمين الأثاث ينتهى- لا بسلم كما هو مألوف- وإنما بجدار ضخم فى وسطه باب.

قالت مس دى هافيلاند: هذا الباب يؤدى إلى الجناح الخاص بأرستيد وزوجته أما فيليب وماجدا فيقيمان فى الطابق الأول..

وانحرفنا يسارا فى دهليز طويل ينتهى بسلم يؤدى إلى الطابق الأول، ودخلنا قاعة استقبال أنيقة ذات أثاث رصين وستائر ثمينة وتزينها أصص الزهور وصور بعض الممثلين والممثلات.

قالت مس دى هافيلاند: أعتقد أنك تود أن ترى فيليب.

فسألت نفسى.. هل أود حقًا أن أراه؟ إننى جئت لمقابلة صوفيا وقد قابلتها، ووافقت على الخطة التى رسمها أبى.. ثم هرعت إلى المطبخ.

لشد ما أحتاج إليها الآن، لترشدنى إلى ما ينبغى عمله.

هل أقابل فيليب ليونيدس بصفتى صديق ابنته؟ أو أقابله كشخص يريد التعرف به «لسبب اخترعه»؟ أو بصفتى من أعوان البوليس؟

لقد ألقت على السؤال تأدباً.. وهى تعلم أن أجابتى لن تجدى شيئاً.

قالت: إنه فى قاعة المكتبة.. فهلم بنا إليه.

وأجتزنا دهليز آخر..- ودخلنا من باب لنجد الكتب من الأرض إلى السقف. وثمة كتب فى كل مكان. فوق الموائد وعلى المقاعد.. وعلى الأرض. ولكنها لا توحى إلى الناظر بوجود فوضى.

وكان جو الغرفة رطباً.. وقد افتقدت فيه رائحة كنت أتوقعها. هى رائحة التبغ. من المحقق أن فيليب ليونيدس لم يكن يدخن.

* * *

كان جالساً أمام مكتبه فنهض واقفاً حالما دخلنا، ورأيت رجلاً يناهز الخمسين من عمره طويل القامة على جانب كبير من الوسامة.

لقد أجمع الذين حدثونى عن أرستيد ليونيدس على أن الرجل كان دميماً غاية الدمامة فلم أتوقع أن أرى لابنه هذا الوجه الوسيم بقسماته الجميلة واستدارته المنتظمة.. وأنفه المستقيم وجبينه المرتفع، فى إطار من شعر غزير وخطه الشيب.

وقدمتنى إليه أديث دى هافيلاند فشد على يدى بحرارة وسألنى ببساطة عن صحتى.. ولكنى أحسست رغم ذلك بأن أمرى لا يهمه.. وأزعجنى ذلك إلى حد ما..

قالت مس دى هافيلاند تحدثه:

- أين إذن رجال البوليس؟ ألم يأتوا لمقابلتك؟

فأجاب وهو ينظر إلى بطاقة على مكتبه:

- إننى فى انتظار قدوم المفتش تافرنر بين لحظة وأخرى..

- وأين هو الآن؟

- لا أعلم يا خالتى.. ربما كان فى الطابق الأول.

- مع بريندا؟

- أؤكد لك أننى لا أعلم.

ولم يكن فى مظهر فيليب ليونيدس ما يوحى بأنه يمكن أن يتورط فى ارتكاب جريمة.

وسألته العانس العجوز:

- هل استيقظت ماجدا؟

- لا أعلم. إنها قلما تستيقظ قبل الساعة الحادية عشرة.

- يخيل إلى أننى أسمع صوتها.

والواقع، أننى سمعت صوتها ثاقبا يقترب بسرعة. ثم رأيت سيدة تدخل الغرفة. أو على الأصح «تقتحمها» كانت تدخن من خلال مبسم طويل عضت عليه بأسنانها، وتضم بيدها على جسدها غلالة رقيقة وردية اللون. بينما انسدل شعرها الأشقر الطويل على كتفيها.

نظرت إلينا بعينين زرقاوين واسعتين. وانطلقت تتكلم بسرعة وبصوت أجش لا يخلو من عذوبة، وهى تنطق بالألفاظ نطقا سليماً.

قالت:

- كلا يا عزيزى.. لم أعد أطيق كل هذا.. إن أعصابى تتمزق كلما

فكرت فيما سوف تكتبه الصحف. صحيح أنها لم تنشر شيئاً بعد، ولكنها ستبدأ حتماً عما قريب.. ثم أننى لا أعلم ماذا يجب أن أرتدى خلال التحقيق. لابد من ثوب محتشم. لا يكون أسود اللون. أظن أنه ينبغى أن أبتاع ثوباً خاصًا لهذه المناسبة. ولكن رجال البوليس سوف يتعقبوننى إذا خرجت.. ومن يدرى ماذا سيعتقدون!!؟؟ إننى أعجب لك يا فيليب.. كيف تستطيع مواجهة الأمور بمثل هذا الهدوء؟ ألا تعلم أنه محظور علينا أن نغادر البيت؟ أى عار أكبر من هذا!! يا إلهى!! كم أشعر بالحزن كلما فكرت فى ذلك العجوز العزيز المسكين. وكيف كان يغمرنا بعطفه رغم أفاعيل تلك المرأة الشريرة ورغم سعيها بالوقيعة بيننا وبينه؟ لو قد نجحت مؤامرتها وغادرنا البيت لحققت كل أهدافها.. تصور رجلا مسكيناً فى الثمانين من عمره وحيداً فى براثن مخلوقة كهذه!! إن من حق أسرته أن تجزع وأن تخشى العواقب وبهذه المناسبة.. أظن أن الوقت المناسب لظهور المسرحية التى وضعت عن «أديث تومسون».. تلك الزوجة الغادرة التى اتفقت مع عشيقها على قتل زوجها.. إن جريمة بريندا ستكون إعلاناً هائلاً للمسرحية.. ودور أديث تومسون يناسبنى تماماً.. يزعم البعض أننى أصلح لأدوار الكوميديا.. ولكنى أعرف كيف سأستغل النص فى هذه المسرحية.. سألعب الدور فى هدوء وبساطة إلى أن..

وفجأة.. لوحت بساعديها.. فتسببت هذه الحركة فى سقوط سيجارتها على المكتب. فتناول فيليب السيجارة فى هدوء وأطفأها وألقى بها فى سلة المهملات.

واستطردت «ماجدا» قائلة بلهجتها المسرحية:

- إلى أن تحين اللحظة التى سأجعل فيها فرائص النظارة ترتعد من الرعب.

وانقلبت سحنتها ذعراً واتخذ وجهها صورة تختلف تماماً عن صورته الطبيعية. صورة امرأة ملك عليها الهلع كل حواسها.

ثم انبسطت أسارير وجهها ونظرت إلى وسألتنى أما كذلك يجب أن تؤدى الدور؟ فأجبتها بالإيجاب رغم أننى لم أكن أعرف شيئاً عن المسرحية أو عن أديث تومبسون. ولكنى كنت شديد الحرص على كسب مودة والدة صوفيا.

قالت:

- إن أديث تومبسون تشبه بريندا إلى حد كبير.. يا إلهى!! كيف لم أفطن من قبل إلى هذه الحقيقة ذات الدلالة الخطيرة. لعل من الخير أن ألفت إليها نظر مفتش البوليس.

فقال فيليب:

- هل من الضرورى أن تقابلى مفتش البوليس يا ماجدا؟ إننى سأفضى إليه بكافة المعلومات التى يريدها.

ولكنها صاحت محتجة:

- بل من الضرورى جدًا أن أقابله وأتحدث إليه أيها العزيز.. إنك تفتقر إلى الخيال وتفوتك ملاحظة التفصيلات الصغيرة الهامة.. ويجب أن يعرف المفتش بكل دقة ووضوح جميع الأمور التافهة التى لاحظها بعضنا وبدت فى حينها غامضة مبهمة.

ودخلت صوفيا فى هذه اللحظة وسمعت حديث أمها فقالت:

- مــاذا تقــولين يا أمــاه؟ لا شك أنك لا تريدين أن تســردى على المفتش مجموعة من الأكاذيب!!

- ولكن يا صوفيا.. يا حبيبتى..

- إننى أعرف ما يدور بخلدك.. وأعرف الدور الرائع الذى أعددت نفسك لتمثيله.. ولكنى أؤكد لك أنك على خطأ..

- ماذا تعرفين أنت عن..

- إننى أعـرف مـا يجب أن تفـعليـه، تكلمى بإيجـاز.. واحـتـفظى بمعلوماتك لنفسك، وكونى على حذر.. وأحمى الأسرة.

فـبـدا على وجـه مـاجـدا من دلائل الحـيـرة مـا يبـدو على وجـوه الأطفال، وقالت:

- إذن أنت تعتقدين حقًا أن..

- نحن لا نعرف شيئاً مؤكداً.. هذا هو المبدأ.

ورأت صوفيا الابتسامة التى ارتسمت على شفتى أمها فاستطردت قائلة:

- لقد أعددت لك قدحاً من الكاكاو.. إنه فى انتظارك على المائده فى قاعة الاستقبال.

- أحسنت صنعاً أيتها العزيزة.. إننى أكاد أموت جوعاً.

وسـارت مـاجـدا إلى البـاب، وهناك نظـرت وراءها وقـالت، وأنا لا أعلم هل كانت توجه الحديث إلى.. أم إلى صفوف الكتب خلفى:

– أنت لا تعلم مبلغ سعادة الأم حين تكون لها ابنة تحبها.

وخرجت.. فتنهدت مس دى هافيلاند وقالت:

– الله وحده يعلم ماذا ستقول لمفتش البوليس. فقالت صوفيا:

– اطمئنى.. سيكون كل شىء على ما يرام.

– إنها خليقة بأن تحكى أى شىء.

– كلا يا خالتى... إنها ستطيع تعليمات المخرج.. والمخرج فى هذه المسرحية هو أنا..

قالت ذلك وخرجت لتلحق بأمها.. ولكنها ما لبثت أن عادت على الأثر لتعلن إلى أبيها أن المفتش تافرنر يرغب فى مقابلته.

واستطردت قائلة:

– وأرجو ألا تجد غضاضة فى أن يشهد تشارلس هذا اللقاء بينك وبين المفتش.

ودهش فيليب ليونيدس، ولكنه أجاب بأن الأمر سيان عنده.

وبعد لحظة، دخل تافرنر بجسمه الضخم، وخطواته الثابتة..

وكانت مس دى هافيلاند أول من تكلم.. قالت:

– هل أنت بحاجة إلى يا سيدى المفتش؟

– ليس الآن يا آنسة.. ولكن فيما بعد إذا سمحت لى ببعض دقائق من وقتك.

– بكل تأكيد.. وسوف تجدنى فى الطابق الأول.

وخرجت، وجلس تافرنر، وعاد فيليب ليونيدس إلى مقعده خلف المكتب.

قال المفتش:

– أعلم أنك رجل كثير المشاغل يا مسيو ليونيدس، ولكنى لن أثقل عليك طويلاً.. لقد رأيت من واجبى أن أنبئك بأن شكوكنا قد تحققت، وأن أباك لم يمت موتة طبيعية، وأنما مات مسموماً بجرعة كبيرة من المادة المعروفة باسم الايزيرين.

فأومأ فيليب برأسه علامة الموافقة..

ـ ولم يبد عليه شىء من دلائل الانفعال.

قال المفتش:

– هل ما ذكرته لك الآن يوحى إليك بأية فكرة؟

– كلا.. واعتقادى هو أن أبى ذهب ضحية خطأ مؤسف.

– أتعتقد ذلك حقّا؟

– إن الأمر واضح. وحدوثه محتمل. ولا تنس أن أبى كان فى العقد الثامن من عمره وأن قوة إبصاره ضعفت كثيراً.

– تعنى أنه ربما خلط بين الأنسولين والايزيرين وسكب محتويات قنينة إحدى المادتين فى قنينة المادة الأخرى هل ترى ذلك ممكناً؟

فصمت فيليب ليونيدس ولم يجب..

قال تافرنر:

– إننا عثرنا بقنينة الايزيرين ولم نجد عليها أية بصمات، وهذا

أمر يبعث على الدهشة.. إذ كان ينبغى أن نجد عليها بصمات أبيك أو بصمات زوجته.. أو خادمه.

فرفع فيليب رأسه وقال:

الواقع أن هذا صحيح.. ولكن هل فكرت فى أمر الخادم؟

– هل تريد أن تقول أن الخادم جونسون ربما يكون هو القاتل؟ إننى أوافقك على أنه كان بوسعه أن يرتكب الجريمة.. ولكن ماذا يدفعه إلى ارتكابها..؟ لقد كان أبوك يعطيه منحة سنوية تزداد عاماً بعد عام. وكان يصارحه بأن هذه المنحة تعوضه عما كان ينبغى أن يوصى له به بعد موته. ومن هذا يتبين لك أنه كان من مصلحة جونسون أن يعيش أبوك أطول مدة ممكنة. لأن المنحة السنوية التى يحصل عليها تزداد عاماً بعد عام. يضاف إلى ذلك أن التفاهم كان تامّا بين أبيك وخادمه. وأنه ليس فى ماض الخادم ما يثير الريبة فهو خادم مخلص يعرف عمله وواجباته.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً:

– إننا لا نرتاب فى جونسون.

فأطرق فيليب برأسه ولم يتكلم.

قال المفتش: هل تستطيع أن تذكر لى يا مستر ليونيدس ماذا فعلت يوم أن مات أبوك؟

– طبعاً أيها المفتش.. أنا لم أبرح هذه الغرفة طول النهار.. فيما عدا وقت تناول الطعام.

- ألم تر أباك فى ذلك اليوم؟

- لقد ذهبت إليه بعد الإفطار لأحييه تحية الصباح كما تعودت أن أفعل كل يوم.

- هل وجدته بمفرده؟

- كانت زوجته معه فى الغرفة.

- هل كان يبدو كما تعودت أن تراه؟

فأجاب فيليب بشىء من السخرية أن أباه لم يكن يبدو وكأنه يتوقع اغتياله فى ذلك اليوم.

- هل كان أبوك يقيم فى جناح مستقل تماماً؟

- نعم.. ولا سبيل للوصول إلى هذا الجناح إلا عن طريق الباب الموجود بالبهو.

- هل يغلق هذا الباب بالمفتاح؟

- كلا.

- أبداً؟

- أبداً.. على قدر ما أعلم.

- إذن فالمرور مباح من وإلى الجناح الخاص بأبيك؟

- نعم.

- كيف علمت نبأ الوفاة؟

- جاء أخى روجر- الذى يقيم فى الجناح الغربى من الطابق

الأول- جاء إلى مكتبى وهو يعدو وقال لى أن أبى يشعر بانهيار ويتنفس بصعوبة وأنه يبدو فى حالة سيئة.

- وماذا فعلت؟

- اتصلت تليفونيًا بالطبيب، وذلك ما لم يفكر فيه أحد. ولكنى لم أجده، فتركت له رسالة بأن يحضر بأسرع ما يستطيع. ثم صعدت إلى الطابق الأول، ووجدت أبى فى حالة سيئة فعلاً وقد توفى قبل حضور الطبيب.

وكان يتكلم وليس فى صوته أى أثر للانفعال. كمن يروى حادثاً لا صلة له به من قريب أو من بعيد.

- وأين كان باقى أفراد الأسرة؟

- كانت زوجتى فى لندن وقد عادت بعد قليل، وأظن أن صوفيا كذلك لم تكن فى البيت. أما جوزيفين وأوستاش فكانا فى غرفتهما.

- أرجو ألا تستاء يا مستر ليونيدس إذا أنا سألتك عن مدى تأثير موت أبيك على مركزك المالى.

- أنا أعلم جيداً يا سيدى المفتش أن هذه أمور يهمك أن تعرفها. لقد حرص أبى منذ سنوات عديدة على أن يؤمن مستقبلنا ويكفل لكل منا استقلاله المالى. فجعل من أخى المدير والمساهم الرئيسى فى أكبر وأهم شركاته، وهى الشركة المتحدة للمواد الغذائية، وأعطانى من المال والسندات ما يوازى نصيب أخى فى الشركة. أى نحو مائة وخمسين ألفاً من الجنيهات. أستطيع التصرف فيها كما أريد.

- وهل بقيت له بعد هذه المنح والهبات ثروة جسيمة؟

- كلا.. إنه لم يحتفظ لنفسه إلا بإيراد متواضع.. يكفى- على حد قوله- لإثارة اهتمامه بالحياة.

وابتسم لأول مرة واستطرد قائلاً:

- بعد ذلك زاول كثيراً من الأعمال المختلفة وأثرى مرة أخرى.. بل أصبح أكثر ثراء مما كان فى أى وقت مضى.

- عندما قررت أنت وأخوك الإقامة هنا.. هل كان ذلك بسبب بعض المتاعب المالية؟

- كلا.. إننا قررنا ذلك لأن الإقامة هنا تطيب لنا، ولأن أبى قال مراراً وتكراراً أنه يسعده أن نعيش معه تحت سقف واحد. وبصرف النظر عن حبى الخالص لأبى.. فقد كان لدى من الأسباب الشخصية ما حملنى على الإقامة مع الأسرة، فجئت إلى هنا فى سنة ١٩٣٧، ولحق بى أخى فى سنة ١٩٤١ عندما هدمت القنابل بيته فى لندن.

- هل لى أن أسألك يا مستر ليونيدس عما إذا كانت لديك أية فكرة عن مضمون وصية أبيك؟

- إننى أعرف جيداً ما جاء بالوصية.. لقد أعاد كتابتها فى سنة ١٩٤٥ عقب انتهاء الحرب. جمعنا فى مكتبه فيما يشبه المجلس العائلى، وطلب إلى محاميه مستر جيتسكيل أن يتلو علينا الوصية وأعتقد أن هذا المحامى قد أبلغك مضمونها.. لقد أوصى فيها لأرملته بمائة ألف جنيه خالية الضرائب، وقسم ما تبقى من ثروته إلى ثلاثة أقسام، أحدها لى والآخر لأخى.. والثالث لأولادى الثلاثة.. صوفيا وجوزيفين وأوستاش.

– ألم يوص بشىء للخدم أو للمؤسسات الخيرية؟

– كلا.. ولكنه كان يعطى الخدم منحاً سنوية تتزايد عاماً بعد عام.

– معذرة عن هذا السؤال يا مستر ليونيدس.. هل أنت حالياً فى أى مأزق مالى؟

– أنت تعلم يا سيدى المفتش أن الضرائب باهظة.. ولكن إيرادى يكفينى ويزيد.. وقد كان أبى سخيًا معنا كل السخاء، وعند الضرورة لم يكن يحجم عن معونتنا.

ثم أردف قائلاً بصوت هادىء:

– فى استطاعتى أن أثبت لك بالدليل أيها المفتش أنه ليست لدى أية أسباب مالية تجعلنى أتمنى موت أبى.

– يؤسفنى يا مستر ليونيدس أن أكون قد أشعرتك بأننى أفترض غير ذلك.. ومن سوء الحظ أن مقتضيات التحقيق تلجئنى إلى إلقاء أسئلة شخصية جدًا كالسؤال الذى سألقيه عليك الآن خاصًا بالعلاقة بين أبيك وزوجته هل كانت العلاقة بينهما حسنة؟

– كانت حسنة جدًا على قدر ما أعلم.

– هل كانا يتشاجران؟

– لا أظن ذلك.

– هل كان بينهما فارق كبير فى السن؟

– نعم.

– هل وافقت على زواج أبيك من زوجته الثانية؟

- إنه لم يستطلع رأيى.

- هذه ليست إجابة يا مستر ليونيدس.

- ما دمت تصر. فأننى أعترف لك بأننى كنت أنظر إلى هذا الزواج على أنه خطأ.

- هل قلت ذلك لأبيك؟

- إننى لم أعلم بأمر الزواج إلا بعد أن أصبح حقيقة.

- أظن أن النبأ كان صدمة لك؟

فصمت فيليب ولم يجب، وقال تافرنر:

- وهل غضبت من أبيك بسبب هذا الزواج؟

- إنه كان حرّا يفعل ما يشاء.

- وهل كنت دائماً على علاقة طيبة مع زوجة أبيك؟

- دائماً.

وانتقل تافرنر إلى موضوع آخر.. وقال:

- هل تستطيع أن تحدثنى عن مستر لورانس براون؟

- لا أظن.. أن أبى هو الذى استخدمه.

- ولكنه استخدمه لتعليم أولادك يا مستر ليونيدس.

- هذا صحيح.. لقد أصيب أوستاش بشلل الأطفال. ومن حسن الحظ أنها كانت إصابة خفيفة.. ولكن أرى من الأفضل ألا يتابع دراسته فى المدارس العامة.. واقترح أبى أن نعهد به وبأخته جوزيفين

إلى مدرس خاص. وكان من المتعذر الحصول على مثل هذا المدرس فى زمن الحرب. لانخراط الجميع فى سلك الجندية.. وأخيراً وجدنا لورانس براون.. الذى قدم إلينا شهادات طيبة رضى عنها أبى وخالتى.. التى تكلفت بتربية الأولاد. فاستخدمناه.. ويجب أن أقرر إحقاقاً للحق أنه مدرس كفء حى الضمير.

– هل يقيم معكم فى هذا البيت؟

– كلا.. فليس فى البيت متسع له.

– هل لاحظت فى أى وقت– ومعذرة عن هذا السؤال– وجود علاقة خاصة بين لورانس وزوجة أبيك؟

– كلا.

– هل سمعت كلاماً عن وجود مثل هذه العلاقة؟

– أنا لم أتعود استراق السمع على الأبواب أيها المفتش.

– صدقت.. إذن أنت لا تعرف شيئاً فى هذا الصدد؟

– كلا..

– فقال تافرنر وهو ينهض:

– حسناً.. لم يبق لى إلا أن أشكرك يا مستر ليونيدس.

وخرج فتبعته.. وما أن وصلنا إلى الدهليز حتى قال:

– هو ذا زبون صعب المراس.

بريندا

قال المفتش تافرنر مستطرداً:
والآن.. هلم بنا نتجاذب أطراف
الحديث مع مسز فيليب ليونيدس
فى مسرح ماجدا ويست.

فسألته: هل هى ممثلة جيدة؟

- إنها من أولئك اللائى يستطعن النجاح.. قامت ببطولة مسرحية أو مسرحيتين فى حى «الويست اند» وأحرزت بعض الشهرة فى المسرحيات الكلاسيكية ويبدو أن لها معجبين فى المسارح التى يختلف إليها المتحذلقون.. والمؤسف فى أمرها أنها ليست بحاجة إلى التمثيل كمصدر للرزق. ففى استطاعتها دائماً أن تختار الدور الذى تريده، وأن تسهم فى تمويل المسرحية التى تعتقد أن بها دوراً يصلح لها ثم يظهر فى النهاية أن الدور لا يلائمها إطلاقاً.. صفوة القول أنهم يعدونها هاوية لا محترفة.. صحيح أنها موهوبة.. ولكن المخرجين لا يحبونها لاعتدادها بنفسها وثرثرتها.

وما أن غادرنا قاعة الاستقبال حتى لحقت بنا صوفيا وقالت للمفتش أن أمها على استعداد لاستقباله.

ودخلنا الغرفة التى تقدمتنا إليها.. فرأيت امرأة كدت أن لا أعرفها تجلس على أريكة فخمة فى أحد أركان الغرفة..

كانت ترتدى تاييراً رمادياً أنيقاً، يطل منه قميص بنفسجى يتدلى فوق صدرة عقد ثمين من اللؤلؤ..

ومرت لحظة قبل أن أعرف من هذه السيدة الأنيقة الوادعة تلك المرأة الصاخبة التى رأيتها قبلاً فى مكتب فيليب ليونيدس.

قالت بصوت فهمت من نبراته أنها مصممة على الاحتفاظ بهدوئها حتى النهاية مهما كلفها ذلك.

– تفضلا بالجلوس.. هل تدخن أيها المفتش؟ إن هذه القضية تقلقنى حتى لأشعر فى بعض الأحيان أننى فى حلم.. بماذا أستطيع أن أفيدك أيها المفتش؟

فأجاب تافرنر:

– اسمحى لى أولاً يا سيدتى بأن أسألك أين كنت عندما توفى مستر أرستيد.

– كنت قادمة بالسيارة من لندن، فقد تناولت طعام الغداء مع صديقة لى بمطعم «أيفى»، ثم شهدنا عرضاً للأزياء وغادرت لندن بعد ذلك.. وعندما وصلت إلى هنا علمت أن مستر أرستيد قد توفى.

وارتجف صوتها فى العبارة الأخيرة بالقدر اللازم تماماً.

– هل كنت تحبينه؟

– بل كنت أعبده..

وارتفع صوتها قليلاً، فدقت صوفيا بأصبعها على إطار صورة فوق الموقد.. وكانت النتجية أن ماجدا خفضت صوتها وهى تقول:

– نعم.. كنت أحبه.. كلنا كنا نحبه.. قد كان لطيفاً معنا جميعاً.

– هل كنت على وفاق مع زوجته؟

– مع بريندا؟ نحن لم نكن نراها إلا قليلاً..

– لماذا؟

– لم تكن لنا صلة بها.. مسكينة بريندا..

ـ لابد أنها مرت بأوقات عصيبة.

وهنا نقرت صوفيا بأصبعها على إطار الصورة مرة أخرى.

قال المفتش:

– أحقاً؟ ماذا تعنين؟

فهزت ماجدا رأسها وقالت وعلى شفتيها ابتسامة حزينة:

– لا أعلم.

– هل كانت سعيدة؟

– أظن ذلك.

– هل كانت تتشاجر مع زوجها؟

– الحق أننى لا أعلم يا سيدى المفتش.

– أعتقد أنها كانت على صلة وثيقة بلورانس براون.. أليس كذلك؟

فاعتدلت ماجدا فى جلستها فجأة وقالت بكبرياء:

- يخيل إلى أنه ليس من حقك أن تلقى على مثل هذه الأسئلة أيها المفتش.. لقد كانت لبريندا صلات وثيقة بجميع الناس، فهى سيدة مجتمع من الطراز الأول.

- ومستر لورانس براون.. هل هو شخص لطيف؟

- إنه شاب هادئ دمث الخلق..

- هل أنت راضية عنه كمدرس؟

- كل ما أعلمه هو أن فيليب راض عنه كل الرضى.

وهنا لجأ تافرنر إلى أسلوب أكثر صراحة. قال:

- معذرة عن هذا السؤال ولكن هل كانت هناك مغازلات بين لورانس براون ومسز بريندا ليونيدس؟

فانبعثت ماجدا واقفة كسيدة عظيمة غضبى وصاحت:

- أنا لم أر شيئاً وليس من حقك أن تستجوبنى فى هذا الموضوع. لقد كانت بريندا زوجة حماى.

فكدت أن أصفق اعجاباً.

أما المفتش فإنه نهض بدوره وهو يقول:

- هذا سؤال ربما يحسن بى أن ألقيه على الخدم..

فصمتت ماجدا ولم تجب، وشكرها تافرنر وحياها بإيماءة من رأسه وانصرف.

وصاحت صوفيا على الأثر:

- برافو!! أحسنت يا أماه.. حقًا لقد كنت رائعة.

فأجابت ماجدا:

- نعم.. هكذا كان يجب أن ألعب هذا الدور.

ونظرت صوفيا إلى وقالت: أما كان يحسن بك أن ترافق المفتش؟

- ولكن يا صوفيا..

ولم أتم عبارتي.. لم يكن باستطاعتي أن أسألها على مسمع من أمها عن الدور الذي ينبغي أن أقوم به في ذلك البيت.

إن ماجدا ليونيدس لم تعرني حتى تلك اللحظة أي اهتمام..

وسواء كنت مخبراً صحفيّا أو خطيباً لابنتها أو مرشداً مغموراً يعمل في خدمة البوليس.. فأنني كنت بالنسبة إليها مجرد «جمهور» يشهد تمثيلها ويصفق لها أو لا يصفق.

وأومأت صوفيا إلى برأسها، فنزلت على إرادتها.

وهرولت في أثر تافرنر ولحقت به في البهو وهو يمر بالباب المؤدي إلى السلم.

قال لي أنه في طريقه لمقابلة روجر.. الأخ الأكبر.. فقررت أن أصارحه على الفور بمشكلتي..

قلت له:

- حدثني يا تافرنر.. ماذا أفعل أنا هنا؟

فنظر إلى فى دهشة وقال:

– ماذا تفعل هنا؟

– نعم.. إذا سئلت عن صفتى هنا فبماذا أجيب؟

– هل هذا ما يقلقك؟

ثم استطرد بعد لحظة تفكير:

– هل سئلت؟

– كلا.

– إذن لا تفكر فى الأمر ولا تدلى بأى إيضاح. هذه هى الطريقة المثلى. وخاصة فى بيت كهذا.. كل إنسان لديه من الهموم والمتاعب ما يصرفه عن التفكير فى استجواب الآخرين.

أن أحداً لن يسألك شيئاً ما دمت تتظاهر بأن من حقك أن تكون هنا. والآن هلم بنا.

* * *

وما أن شرعنا فى ارتقاء السلم حتى قال:

– لا شك أنك لاحظت أن جميع الأسئلة التى ألقيتها عليهم لا أهمية لها.. وأننى لا يعنينى ماذا كان يفعل هذا أو ذاك عندما لفظ العجوز أنفاسه الأخيرة.

فسألته فى دهشة:

– إذن لماذا تستجوبهم؟

– لأن استجوابهم يهيىء لى فرصة لمعرفة أسباب الخلاف بينهم.. ولأن ثرثرتهم قد تتضمن معلومات تفيدنا.

ثم استطرد قائلاً بصوت خافت:

– قلبى يحدثنى بأن ماجدا ليونيدس تستطيع إذا شاءت أن تدلى إلينا بحقائق على جانب عظيم من الأهمية.

إن ما يحيرنى فى هذا البيت هو أن كل إنسان فيه يملك القدرة والوسيلة لارتكارب الجريمة.. وأنا لذلك لا أبحث عن المجرم.. وإنما أبحث عن الدافع إلى الجريمة.

* * *

وتوقفنا فى نهاية السلم أمام باب مغلق، وقرع المفتش الباب ففتحه عملاق ضخم الجسم، عريض الكتفين مشوش الشعر.

كان دميم الوجه.. دمامة تثير العطف.

وذكر تافرنر اسمه.. فقال الرجل:

– تفضلا بالدخول.. لقد كنت أهم بالخروج، ولكن لا ضرورة لذلك الآن.. تعاليا إلى قاعة الاستقبال وسأخطر كليمنسى بقدومكما.. آه.. أنت هنا أيتها العزيزة؟ هذا هو المفتش تافرنر.. أظن أنه لا توجد سجائر هنا!! صبراً لحظة. سأحضر بعض السجائر وأعود فوراً.

وغادر المكان.. وأحسسنا بنعمة السكون بعد الجلبة الشديدة التى أحدثها.

وكانت زوجته تقف على مقربة من النافذة. فنظرت إليها ولم أتمالك نفسى من الإحساس بأنها شخصية تثير الفضول.

كذلك أثار فضولى جو الغرفة التى دخلناها..

كانت الجدران عارية من كل زخرف، خالية من اللوحات والزهور فيما عدا لوحة فوق الموقد عليها رسوم هندسية متشابكة..

أما الأثاث فكان قليلاً.. بضعة مقاعد، ومائدة مغطاة بالزجاج، وخزانة صغيرة للكتب.

ولكن كان هناك كثير من الضوء.. والفراغ والهواء.

كان الفارق بين قاعة الاستقبال فى شقة ماجدا بأثاثها الفخم ولوحاتها وآنيتها وزهورها وبين قاعة الاستقبال فى شقة كليمنسى بهدوئها وبساطتها المحببة كالفارق بين المرأتين.. فالأولى لها ثلاثون شخصية مختلفة.. أما الثانية فلها شخصية واحدة هى شخصيتها الحقيقية التى لا ترضى بأن تتقمص شخصية سواها.

كانت كليمنسى تناهز الخمسين من العمر لها شعر قصير قد خطه الشيب، وعينان جميلتان تشعان ذكاء وحيوية، وكانت ترتدى ثوباً أحمر من الصوف يبرز نحول جسدها وطول قامتها.

دعتنا إلى الجلوس وسألت تافرنر عما إذا كان هناك جديد فأجاب:

– نعم يا سيدتى.. ثبت أن الوفاة نجمت عن تسمم بمادة الايزيرين.

فقالت بنفس الصوت الهادئ وهى مستغرقة فى التفكير:

– إنها إذن جريمة قتل.. ألا يحتمل أن يكون الحادث قد وقع قضاء وقدراً.

– كلا بالتأكيد.

– هل لى أن أرجوك بالترفق بزوجى أيها المفتش..؟ هذا النبأ سيثيره.. وهو شديد الحساسية وكان يحب أباه حبًا جمًا.

– هل كانت علاقتك بأبيه طيبة يا سيدتى؟

– كانت طيبة جدًا.

ثم أضافت فى هدوء:

– ولكنى لم أكن أحبه.

– لماذا؟

– لم أكن أقر أهدافه. ولا وسائله للوصول إلى هذه الأهداف.

– ومسز بريندا ليونيدس؟

– بريندا؟ لم أكن أراها كثيراً.

– هل تعتقدين بأنه يمكن أن تكون هناك علاقة ما بينها وبين لورانس براون؟

– لا أعتقد ذلك.. ولو كانت هناك علاقة لما علمت بها.

كانت نبرات صوتها توحى بأن الأمر لا يهمها.. ودخل روجر ليونيدس فى هذه اللحظة كالعاصفة قال:

– تأخرت قليلاً لأننى تلقيت محادثة تليفونية.. ماذا عندك من الأنباء أيها المفتش؟ هل عرفتم كيف مات أبى.؟

– مات مسموماً بمادة الأيزيرين..

– يا الهى!! إذن فإن تلك المرأة لم تستطع الانتظار!! لقد أنقذها

من الوحل فكان جزاؤه منها القتل.. كلما فكرت فى..

- هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامها؟

فجرى بأصابع يديه فى شعر رأسه وأجاب وهو يذرع أرض الغرفة:

- أسباب؟ إذا لم تكن هى فمن سواها؟ إننى لم أثق فيها قط ولم أشعر نحوها بأى عطف.. لا أحد منا يحبها.. لقد جمدنا فى أماكننا، أنا وفيليب يوم أنبأنا أبى بما فعل.. كان جنوناً أن يتزوج فى تلك السن.

إن أبى كان رجلاً مدهشاً أيها المفتش.. وقد ظل يحتفظ وهو فى السبعين بذكاء ويقظة ابن الأربعين.

إننى أدين له بكل ما أملك فى هذه الدنيا.. ولم يحدث قط أنه امتنع عن مساعدتى عند الضرورة.

قال ذلك وتهالك فى أحد المقاعد.. فوضعت زوجته يدها على كتفه بلطف وقالت:

- أهدأ وتمالك نفسك يا روجر..

- كيف أهدأ حين أفكر فى..

- يجب علينا جميعاً أن نحتفظ بهدوئنا يا روجر.. إن المفتش تافرنر لا يبغى إلا مساعدتنا.

فنهض روجر من مقعده فجأة وصاح:

- هل تعلمين ماذا أريد أن أفعل؟ أريد أن أخنق هذه المرأة بيدى.. لو كانت أمامى الآن لدققت عنقها.

- روجر!!

كان صوتها حازماً فنكس روجر رأسه وقال:

- معذرة أيتها العزيزة.

ثم نظر إلينا وأردف:

- معذرة.. فقد استبد بى الغضب..

وغادر الغرفة مرة أخرى، فشيعته كليمنسى بابتسامة غامضة وقالت:

- إنه رغم صخبه وهياجه لا يؤذى ذبابة.

فأجاب تافرنر فى أدب أنه واثق من ذلك، ثم ألقى عليها بضعة أسئلة فأجابته بدقة وإيجاز.. قالت عن تحركات روجر يوم وفاة أبيه أنه قضى ساعات الصباح فى مقر إدارة الشركة المتحدة للمواد الغذائية بلندن، وعاد بعد الظهر، حيث اجتمع بأبيه فترة قصيرة كما اعتاد أن يفعل كل يوم. أما هى فإنها ذهبت كالعادة إلى مقر عملها بمعهد «لامبرت» ولم تعد إلا فى الساعة السادسة مساء.

- هل رأيت أرستيد ليونيدس فى ذلك اليوم..

- كلا، رأيته لآخر مرة فى اليوم السابق، حين تناولنا القهوة معه بعد العشاء.

- ألم تريه يوم وفاته؟

- كلا.. ولكنى ذهبت إلى شقته فى ذلك اليوم للبحث عن غليون روجر، ووجدت الغليون على مائدة الردهة حيث نسيه روجر، فلم أشأ أن أزعج العجوز.. لأنه اعتاد أن يغفو حوالى الساعة السادسة.

- متى علمت أن حاله قد ساء؟

- جاءت بريندا وأنباتنا.. كان ذلك فى حوالى الساعة السادسة والنصف.

وكان تافرنر ينظر إلى كليمنسى طول الوقت ولا يحول عينيه عن وجهها.

وأخيراً ألقى عليها بضعة أسئلة عن طبيعة عملها فى معهد لامبرت، فقالت أنها تقوم ببعض البحوث عن تحطيم الذرة..

وقبل أن ينصرف تافرنر، طلب أن يلقى نظرة على الشقة، فدهشت كليمنسى ولكنها أجابته إلى ما طلب.

كان المخدع بفراشيه الصغيرين وستائره البيضاء يذكر الناظر بغرف النوم فى الأديرة، وكان الحمام لا يقل عنه تقشفاً، أما المطبخ فكان نطيفاً جدّاً وقد نظم بحيث يوفر ما يبذل فيه من جهد.

ووصلنا إلى آخر باب فى الشقة ففتحته كليمنسى وهى تقول:

- هنا مكتب زوجى.

فتنهدت بارتياح إذ أسعدنى بعد جولتى فى تلك الشقة المتواضعة التى يعبر مظهرها عن التقشف أن أجد نفسى أخيراً فى غرفة تعكس شخصية صاحبها.

كان المكتب مغطى بالأوراق. والغلايين القديمة مبعثرة بين الملفات والجدران مزينة بصورة جماعية لطلاب ولاعبى كريكيت وعسكريين وبلوحات بالألوان المائية تمثل المآذن وغروب الشمس، والسفن الشراعية.. والغرفة فى مجموعها تترك فى نفس الزائر انطباعاً بأنها لرجل يسعد الإنسان أن يتخذه صديقاً.

وأفسح روجر مكاناً على مكتبه لكى يقدم لنا شراباً وقال:

- كنت بسبيل معالجة هذه الفوضى وتنظيم الأوراق.

وتناولت الكأس التى قدمها إلى، واعتذر تافرنر وقال: إنه يفضل ألا يتناول شراباً، واستطرد روجر قائلاً:

- أرجو المعذرة مرة أخرى عما بدر منى.. فإننى لم أتمالك نفسى.

ونظر حوله بخوف: ولكنه اطمأن حين لم ير كليمنسى وقال:

- إنها امرأة رائعة!! أنتما تعرفان طبعاً من أعنى.. لقد ظلت طوال هذه المحنة محتفظة بثباتها ورباطة جأشها.. وليس فى استطاعتى أن أعبر عن مبلغ إعجابى بها.. إنها مرت بأيام عصيبة قبل أن تتزوج. كان زوجها الأول شاباً ممتازاً ولكنه مريض بالسل الرئوى.. وكان يقوم بأبحاث علمية هامة عن «التيلور»، ويعمل كثيراً ويربح قليلاً ولكنه رفض أن يترك معمله.. فساعدته بكل ما تملك من قوة، وبذلت بغير حساب. وأنهكت قواها لتجنبه التعب والألم.. وهى تعلم عن يقين أنه يسير إلى القبر بخطى حثيثة.. ولم تشك ولم تتذمر. وظلت إلى آخر لحظة تقول له أنها سعيدة.. ولما مات انهارت تماماً.

ولما تزوجنا.. رجوتها أن تكف عن العمل وتستريح، ولكننا كنا فى حالة حرب. وكان شعورها بواجبها الوطنى قويًا، فلم تستجب إلى رجائى. واستمرت فى عملها حتى الآن. إنها زوجه عظيمة.. وطالما قلت لنفسى أن يوم لقائى بها كان بغير شك أسعد يوم فى حياتى.. إننى على استعداد لأن أفعل أى شىء من أجلها.

فقال تافرنر عبارة لبقة تناسب الموقف، ثم عرج بمهارة على

موضوع الزيارة وسأله:

- كيف علمت أن أباك فى حالة سيئة؟

- جاءت بريندا وأنبأتنى فأسرعت إلى أبى وكنت قد تركته منذ نحو نصف ساعة فى أحسن حال. فوجدته يهذى ووجهه أزرق، فانطلقت إلى أخى الذى اتصل بالطبيب فى الحال.. ولم يكن فى استطاعتى عمل شىء.. وغنى عن الذكر أنه لم يتطرق إلى أذهاننا فى ذلك الوقت أن فى الأمر ما يبعث على الارتياب.

وبعد لحظة كنت وتافرنر نغادر الشقة فقال لى:

- ليس بين الأخوين أى تشابه.

ثم أردف بعد قليل:

- يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن هذا الرجل لا يمكن أن يسمم أحداً. أما زوجته فإنها من الطراز الذى لا يصده عن أهدافه أى اعتبار.

فقلت: ولكنى لا أظن أنها تقتل إنساناً لمجرد أنها تختلف معه فى الرأى.. صحيح أنها اعترفت بأنها تبغض العجوز. ولكن كم عدد الجرائم التى ترتكب بسبب البغض وحده؟

فأجاب تافرنر:

- عددها قليل.. أنا شخصيًا لم أصادف جريمة ارتكبت لهذا السبب. ولذلك مازلت أصر على أن المتهمة الرئيسية هى بريندا.. والله وحده يعلم ما إذا كنا سنستطيع العثور على دليل يدينها.

كثيراً من الفضول

فتحت إحدى الوصيفات الباب المؤدى إلى الجناح الآخر وصعدت تافرنر بنظرة تجمع بين الخوف والاحتقار وسألته:

- هل تريد مقابلة سيدتى؟

- نعم..

فقادتنا إلى قاعة استقبال فسيحة واختفت..

كان أثاث القاعة يمتاز بألوانه المرحة.. وقد وضعت على الجدار فوق المدفأة صورة لفتت نظرى.. ليس فقط لأنها بريشة أحد كبار الفنانين، وإنما كذلك لأنها تمثل شخصاً غير عادى.. تمثل عجوزاً ثاقب النظرات، يشع وجهه نشاطاً وحيوية.

قال تافرنر: هذه اللوحة رسمها الفنان الكبير أوجستوس جون، كانت للعجوز شخصيته المميزة. أليس كذلك؟

- نعم.

كانت إجابتى المختصرة لا تعبر تعبيراً كافياً عما يدور بخلدى..

فلقـد فـهـمت الآن فـقـط وأنا أتامل الصـورة مـاذا عنيت أديث دى هافيلاند حين قالت أن البيت بدون العجوز يبدو خاوياً.

قال تافرنر:

- وها هى صورة زوجته الأولى بريشة الفنان «سارجنت».

فاقتربت لأتامل الصورة.

كانت موضوعة بين نافذتين، وتعبر عن الخشونة التى تتميز بها لوحات «سارجنت». ولكنها كانت صورة جيدة لسيدة من أغنياء الريف. جميلة ولكن ليس ثمة ما يميزها.. ولا يمكن أن يتصورها الإنسان زوجة لهذا الطاغية القصير القامة الذى تطل صورته من فوق المدفأة.

ودخل الضابط «لام» فى تلك اللحظة وقال:

- لقد فرغت من استجواب الخدم.. إنهم لا يعرفون شيئاً.

ثم جلس فى أحد الأركان وأخرج ورقة وقلماً، واستعد لتسجيل ما سوف يدور من حديث بين المفتش والزوجة الثانية لأرستيد ليونيدس.

وفتح الباب، ودخلت بريندا.

ورأيت أمامى سيدة صغيرة الجسم، رقيقة، قد صبغت شفتيها وصففت شعرها الأسود ببساطة وبلا تعقيد، وعلى الرغم من ذلك خيل إلى أنها كانت تبكى قبل قدومها.

وكانت ترتدى ثوب حداد يلائمها تماماً، وتزين صدرها بعقد من اللؤلؤ.. ويدها اليسرى بخاتم من الزمرد، ويدها اليمنى بخاتم آخر من الياقوت.

لاحظت كل ذلك بسرعة، ولاحظت أيضاً أنها ترتعد خوفاً.

وحياها تافرنر وقال أنه آسف لأن يزعجها مرة أخرى، فأجابته بصوت باهت:

– أظن أن لا سبيل لك غير ذلك..

قال:

– لا أحسبنى يا سيدتى بحاجة إلى أن أقول لك أن من حقك الاستعانة بمحاميك إذا شئت.

– أنا لا أحب مستر جيتسكيل.. ولا أريد أن أراه.

– بوسعك الاستعانة بأى محام آخر يقع عليه اختيارك.

– وهل ذلك ضرورى.. أنا لا أحب رجال القانون.. إنهم يربكوننى.

فقال تافرنر وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها:

– على رسلك.. هل نبدأ؟

فجلست على أحد المقاعد وسألت:

– هل وجدتم شيئاً؟

وراحت أصابعها تعبث بقماش ثوبها بحركة عصبية.

قال تافرنر: بوسعنا أن نؤكد بصفة قاطعة أن زوجك مات مسموماً بمادة الايزيرين.

– تعنى أنه قتل بالمادة التى يضع منها قطرات فى عينيه؟

– يبدو أنك حقنته آخر مرة بالايزيرين بدلاً من الأنسولين.

– ولكنى لم أكن أعلم ذلك أيها المفتش.. أقسم لك أننى لم أكن أعلم.

– إذن لابد أن يكون أحدهم تعمد استبدال الأنسولين بالايزيرين.

– هل تعتقد أن ذلك حدث عمداً؟ أم خطأ؟ أم على سبيل الدعابة؟

– نحن لا نعتقد بأنها كانت دعابة يا سيدتى..

– إذن لابد أنه أحد الخدم.. إننى لا أرى تفسيراً آخر..

– هل أنت واثقة يا سيدتى؟ فكرى جيداً.. ألم يكن هناك من يحقد على مستر ليونيدس؟ ألم يحدث خلاف بينه وبين أحد.

– لا أظن.

– سبق أن قلت أنك ذهبت إلى السينما بعد ظهر ذلك اليوم.

– نعم. وقد عدت حوالى الساعة السادسة والنصف، وهو موعد الحقنة. ولكنى ما كدت أحقنه كالعادة حتى فتر لونه وأصيب بانهيار فذعرت وأسرعت إلى روجر. إننى قصصت عليك كل ذلك فهل يجب أن أكرره..

وارتفع صوتها غضباً وضيقاً وهى تنطق بالعبارة الأخيرة فقال تافرنر:

– أنا آسف يا سيدتى.. هل أستطيع مقابلة مستر براون؟

– تعنى لورنس؟ لماذا؟ إنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق.

– أريد مقابلته على كل حال.

فنظرت إليه بارتياب وأجابت:

- إنه فى قاعة الدرس يلقى على أوستاش درساً فى اللغة اللاتينية هل أدعوه إلى هنا؟

- كلا .. أفضل أن أذهب إليه.

وغادر تافرنر الغرفة، وتبعته مع لام. وسرنا فى دهليز انتهى بنا إلى غرفة فسيحة تطل على الحديقة وهناك رأينا رجلاً يناهز الثلاثين، يجلس جنباً إلى جنب مع مراهق فى نحو السادسة عشرة من عمره.

ورفع الاثنان رأسيهما حينما دخلنا، واتجهت عينا أوستاش إلى، بينما استقرت عينا لورانس براون على تافرنر، ولم أر فى عينى إنسان من الجزع ما رأيته فى عينى هذا الشاب فى تلك اللحظة.. كان يبدو وكأنه يوشك أن يموت خوفاً.

نهض واقفاً وقال:

- طاب يومك أيها المفتش..

- طاب يومك.. هل أستطيع أن أقول لك كلمتين.

- بلا شك يا سيدى.

فنهض أوستاش وقال بصوت رقيق:

- هل أغادر الغرفة أيها المفتش؟

فقال له لورانس:

- سنستأنف الدراسة بعد قليل يا أوستناس.

فانصرف الفتى وهو يمشى ببطء. ويعرج فى مشيته.

قال تافرنر:

– لقد أثبتت التحاليل حقيقة هامة يا مستر براون. هى أن مستر ليونيدس مات بمادة الايزيرين.

– إذن فقد مات مسموماً حقا؟ كنت أرجو أن..

– نعم.. لقد استبدل أحدهم بالايزيرين مادة الأنسولين التى كان يحقن بها.

– لا أستطيع أن أتصور ذلك!! هذا أمر لا يمكن تصوره.

– السؤال الذى أريد أن ألقيه عليك هو: من صاحب المصلحة فى قتل مستر ليونيدس؟

– لا أحد.. لا أحد إطلاقاً..

– بهذه المناسبة. ألا تريد أن يشترك محاميك فى هذا الحديث؟

– ليس لى محام.. ولا أريد أن يكون لى.. إننى لا أخفى شيئاً.

– هل تعلم أننا سنسجل أقوالك؟

– إننى برىء.. أقسم لك أننى برىء.

– أنا لم أقل شيئاً يوحى بعكس ذلك.

وصمت تافرنر قليلاً ثم قال:

– كانت مسز ليونيدس أصغر كثيراً من زوجها.. أليس كذلك؟

– أظن ذلك.. أعنى.. نعم..

– لابد أنها كانت تشعر بالوحدة فى بعض الأحيان.

فمر لورانس بلسانه على شفتيه الجافتين ولم يجب.. واستطرد تافرنر قائلاً:

- لا شك أنه كان من بواعث ارتياحها أن تجد على مقربة منها شابًا فى مثل سنها؟

- أبدا.. أعنى.. لست أعلم.

- أما أنا فيخيل إلى أنه من الطبيعى جدًا أن تتوثق أواصر الصداقة بينكما.

فقال لورانس محتجًا بقوة:

- أنا أعرف جيداً ما يدور بخلدك.. ولكنك مخطئ. أن مسز ليونيدس تعطف على وأنا لا أكن لها إلا الاحترام.. ولم أشعر نحوها قط بأية عاطفة أخرى. وهذا الدور الذى تلمح إليه فظيع للغاية. ولست أتصور أننى أستطيع أن أقتل أحداً بالسم أو بسواه.. إن عقيدتى الدينية تمنعنى من أن أقتل. وهذا هو السبب فى أننى لم أنخرط فى سلك الجندية.. وبدلاً من حمل السلاح عملت وقادا بالمستشفيات، كنت أشعل المدافئ والسخانات وهو عمل مضن لم أقو على مواصلته فسمحت لى السلطات بالاشتغال بالتدريس. وأنا هنا أبذل قصارى جهدى مع أوستاش وجوزيفين. الأخيرة تلميذة ذكية جدًا ولكنها متعبة. والجميع فى هذا البيت يعاملوننى بكل رفق. وهأنتذا تأتى الآن وتتهمنى بارتكارب جريمة قتل!!

فانبسطت أسارير تافرنر قليلاً وقال:

- أنا لم أتهمك.

– ولكنك تظن ذلك.. الجميع هنا يظنون ذلك. إننى أقرأ الاتهام فى عينيك.. ولكنى لست فى حالة تساعدنى على الكلام... إننى أشعر بوعكة.

وأسرع إلى خارج الغرفة. فتحول تافرنر إلى ببطء وقال:

– ما هى انطباعاتك؟

– إنه فى أشد حالات الخوف.

– أعلم ذلك. ولكن هل هو القاتل؟

فقال لام:

– إذا أردت رأيى فإنه ليس قاتلاً.. ولا يمكن أن تواتيه القدرة على القتل.

فقال تافرنر:

– ذلك رأيى أيضاً.. فهو لا يستطيع أن يقتل.. بل ولا يستطيع أن يصوب مسدساً.. ولكن الجريمة التى نحن بصددها لا تكلف القاتل جهداً.. بحسبه أن يستبدل قنينة بأخرى لكى يساعد عجوزاً متهدماً على الخروج من هذه الدنيا بأقل قدر من الألم.

فقال لام:

– كنوع من القتل بدافع الشفقة.

– وبعد فترة انتظار معقولة. يقترن بالأرملة الشابة التى تملك نحو مائة ألف جنيه وترث مبلغاً مماثلاً.. عدا ما لديها من مجوهرات.

وصمت تافرنر قليلاً ثم قال:

– كل هذا مجرد ظن.. لقد تعمدت أن ألقى الذعر فى قلبه، ويبدو أننى نجحت.. ولكن ذلك لا يثبت شيئاً. فالإنسان يمكن أن يخاف وهو برىء. والواقع أننى لا أرتاب فيه بقدر ما أرتاب فى المرأة.. ولكنى مازلت أتساءل.. لماذا لم تتخلص من القنينة. أو على الأقل لماذا لم تغسلها لإزالة كل أثر للايزيرين بها؟

ثم التفت إلى لام وسأله:

– ألم يلاحظ الخدم وجود صلة بين سيدتهم ولورانس.

– قالت لى الوصيفة أنها واثقة من وجود عاطفة متبادلة بينهما.

– ما الذى جعلها تعتقد ذلك؟

– نظراته إلى السيدة وهى تقدم له أقداح القهوة.

– وهل هذا دليل يقدم للمحكمة؟ ألا يوجد شىء آخر؟

– كلا.

– لو كانت بينهما صلة لما غاب عن الخدم ملاحظتها. إننى أكاد أقتنع بأن هذه الصلة لا وجود لها.

ثم التفت إلى وقال:

– اذهب إليها الآن واستدرجها إلى الحديث فإننى أود أن أعرف انطباعاتك عنها.

فخرجت وأنا أشعر بقليل من الحماسة وكثير من الفضول.

لورانس!!؟

وجدت بريندا ليونيدس جالسة حيث كانت حين تركتها .. سألتنى حالما وقع بصرها على: أين المفتش؟ ألن يعود؟

- ليس الآن.

- من أنت؟

هذا هو السؤال الذى كنت أتوقعه منذ الصباح وقد كان جوابى أقرب ما يكون إلى الحقيقة.

- إننى أعمل مع البوليس ولكنى صديق للأسرة.

- الأسرة؟ أولئك الوحوش؟ إننى أمقتهم جميعاً.

ونظرت إلى، وشفتاها ترتجفان واستطردت قائلة:

لماذا كان ينبغى ألا أتزوج أباهم؟ ولماذا ضايقهم هذا الزواج؟ إنهم جميعاً أثرياء إلى أبعد حدود الثراء من المال الذى أخذوه من أبيهم والذى ما كانوا يستطيعون أن يربحوه بكدهم وعرق جبينهم!! ثم ألم يكن من حقه أن يتزوج رغم تقدمه فى السن؟ على أنه لم يكن عجوزاً

بحال.. إن العجز أنواع.. وقد كنت أحبه.

ونظرت إلى فى تحد واستطردت قائلة:

- نعم. كنت أحبه. ولعلك لا تصدق ذلك، ولكنها الحقيقة.. كان هناك رجال كثيرون أستطيع أن أختار من بينهم زوجاً لى.. ولكنى كنت أريد بيتاً.. وشخصاً يدللنى ويقول لى كلاماً لطيفاً. وقد قال لى أرستيد هذا الكلام. وعرف كيف يسلينى ويضحكنى.

كلا.. إن موته لم يسرنى. إننى جد حزينة.

واعتدلت فى جلستها وارتسمت على ركن فمها ابتسامة غريبة وقالت:

- لقد كنت سعيدة هنا. كنت أشعر بالطمأنينة والأمان، وأذهب إلى أشهر صانعى الثياب. وكان أرستيد يقدم لى أجمل الهدايا وأثمنها.

ونظرت إلى الخواتم التى تزين يديها وقالت:

- أى ذنب جنيت؟ كنت لطيفة معه وقد أسعدته..

- هل تدرى كيف عرفته؟

ولم تنتظر إجابتى ومضت تقول:

- كنت أعمل فى أحد المطاعم، فجاء وطلب بيضاً مسلوقاً، وعندما أحضرت له ما طلب. كانت الدموع فى عينى فقال لى «اجلسى.. وحدثينى ما خطبك» فأجبته: «مستحيل. لو فعلت ذلك لطردونى» فقال: «سوف يدهشنى أن يطردوك.. لأننى صاحب هذا المطعم».

فنظرت إليه، ووجدته قزماً عجوزاً لا يساوى شيئاً.. ولكنى اكتشفت فيما بعد أنه صاحب سلطة ليست لسواه. وباختصار. رويت

له قصتى.. ومن المحتمل أنك تعرفها. إذ لا شك أنهم حدثوك عنى.. وقالوا لك أننى مخلوقة تافهة.. ولكنهم كاذبون. فأننى على جانب كبير من الثقافة وكان أبى يملك متجراً كبيراً.. ولم يحدث قط أننى تسكعت مع الفتيان ولكن «تيرى» كان يختلف عن غيره من الشباب. كان من أصل أيرلندى، وقد سافر مع الجيش إلى مكان بعيد ولم يكتب إلى وانقطعت أنباؤه. ومن تحصيل الحاصل أن أقول لك أننى كنت قد تورطت معه.. وأصبحت فى مركز أية فتاة تخلى عنها عشيقها.

سمع أرستيد قصتى.. وكان رائعاً. قال لى: أن كل شىء يمكن إصلاحه. وأنه يشعر بوحدة شديدة، وأننا سنتزوج دون انتظار... ولم أصدق أذنى... وخيل إلى أننى أحلم، وعلمت على الأثر أنه مستر ليونيدس المشهور الذى يملك كثيراً من المطاعم والملاهى والأندية الليلية.

وبعد فترة وجيزة تزوجنا فى إحدى الكنائس الصغيرة، ورحلنا إلى أوروبا لقضاء شهر العسل.

– والطفل؟

– لم يكن هناك طفل. كنت مخطئة.

وابتسمت واستطردت قائلة: أقسمت أن أكون له خير زوجة. وبررت بقسمى. قدمت له الطعام الذى يريده. وارتديت الثياب التى تعجبه. وفعلت كل ما يمكننى لإسعاده. وكان سعيداً فعلاً، ولكننا لم نستطع قط التخلص من أفراد أسرته. أولئك الأمعات التوافه الذين يعيشون على حسابه. إليك مثلاً تلك العجوز مس دى هافيلاند. أما كان يجب عليها أن ترحل؟ قلت ذلك لأرستيد فأجاب: «أنها تقيم هنا منذ وقت طويل.

وتعتبر هذا البيت بيتها».

والحقيقة أنه كان يريدهم جميعاً حوله وتحت رحمته.

وقد عاملونى بقسوة. ولكنه كان يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً.

كان روجر يكرهنى بدافع الغيرة والحسد، وكان فيليب يشمخ على بأنفه صلفا وغروراً. وهم جميعاً يريدون الآن أن يلصقوا بى تهمة قتل زوجى. فهل تصدقنى إذا قلت لك أنها تهمة كاذبة؟ قل أنك تصدقنى. أضرع إليك..

* * *

كان فى صوتها وفى نظرتها إلى شىء جعلنى أشعر نحوها بالشفقة والعطف. حتى كدت أن أدين السلوك اللاإنسانى لتلك الأسرة التى تحاول أن تلصق جريمة القتل بهذه المرأة المسكينة التى لا حول لها ولا قوة.

قالت:

– فى اعتقادهم أننى إذا لم أكن قتلت، فالقاتل هو لورانس.

– حدثينى عنه قليلاً.

– كنت دائماً أرثى له، فهو معتل الصحة، ولم يشترك فى الحرب، ليس لأنه جبان، وإنما لأنه شديد الحساسية. وقد بذلت قصارى جهدى لكى أجعله يشعر بالسعادة هنا.. إنه يشرف على تثقيف تلميذين فظيعين.. أوستاش.. الذى لا يدع فرصة تمر دون أن يسخر منه ويحاول إذلاله.. وجوزيفين هل رأيتها؟

– كلا..

– إنها تذكرنى بالحية. وهى غريبة الأطوار. حتى تشعر أحيانا بالخوف منها.

ولكن جوزيفين لم تكن تهمنى.. فعدت إلى الحديث عن لورانس وسألتها:

– من هو؟ ومن أين جاء؟

– إنه لا شىء.. مثلى.. فماذا نستطيع ضدهم.. خاصة وأن المفتش فى صفهم.

– لا ينبغى أن تنظرى إلى الأمور على هذا النحو.

– لماذا لا يكون القاتل واحداً منهم؟ أو شخصاً من الخارج؟

ـ أو أحد الخدم؟

– يجب أن نفكر فى الدافع إلى الجريمة.

– الدافع؟ وما هو الدافع بالنسبة إلى.. أو إلى لورانس؟

فقلت بشىء من الحرج:

يمكن أن يقال أن بينكما صلة عاطفية وأنك تأملين الاقتران به يوماً ما.

فقالت بحدة:

– كيف يجرأون على مثل هذا التفكير؟ لم يحدث قط أن دار بينى وبينه حديث يدعوهم إلى هذا الظن. كنت لطيفة معه لأننى كنت أتألم له. نحن صديقان ولا شىء غير ذلك، هل تصدقنى؟

صدقتها. وصدقت أنهما كانا مجرد صديقين كما قالت، ولكنى شعرت فى قرارة نفسى بأنها مولعة به. ربما دون أن تدرى.

* * *

وبهذه الفكرة فى ذهنى، انطلقت لمقابلة صوفيا. وكنت فى طريقى إلى قاعة الاستقبال حين رأيتها تطل من أحد الأبواب.

قالت لى:

– إننى أساعد «نانى» فى إعداد الطعام.

فهممت بمرافقتها إلى المطبخ، ولكنها أمسكت بيدى. وقادتنى إلى قاعة الاستقبال، ولم يكن بها أحد.

سألتنى:

– هل قابلت بريندا؟ ما رأيك فيها؟

– بصراحة.. أنا أرثى لها.

فنظرت إلى باحتقار وقالت:

– أرى أنها طوتك تحت جناحها.

– الواقع أننى فهمت وجهة نظرها.

– ماذا تعنى؟

– أجيبينى بصراحة يا صوفيا. هل حدث يوماً منذ جاءت بريندا إلى هذا البيت أن احتضنتها الأسرة أو عاملتها برفق على الأقل؟

– كلا.. لم يحدث.. ولكن لماذا كان يجب أن نترفق بها؟ يبدو من

كلامك يا تشارلس أن بريندا أقنعتك بتمثيلها.

- الحق أننى لا أعرف ماذا دهاك يا صوفيا.

- دهانى أننى صريحة وأقول كل ما يدور بخلدى.. قلت أنك فهمت وجهة نظر بريندا.. حسناً.. دعنى أوضح لك وجهة نظرى. أنا لا أحب الفتيات اللائى يخترعن القصص لإثارة شفقة العجائز بهدف الاقتران بهم.. إن لى كل الحق فى أن أمقت المغامرات التى من هذا الطراز. ولست أرى سبباً يدعونى إلى التظاهر بحبهن.

- هل تعتقدين أنها كذبت على جدك؟

- بشأن الطفل؟ ربما.

- ألا تغفرين لها أنها استولت على جدك؟

فانفجرت ضاحكة وقالت:

- أؤكد لك أنها لم تستول عليه. لا أحد استطاع أن يستولى عليه. لقد أراد بريندا. وظفر بها. كان يعرف جيداً ما هو فاعل. فسارت الأمور وفقاً لخطته. وكان الزواج من وجهة نظره عملية ناجحة مثل جميع عملياته.

- وهل كان من عملياته الناجحة اختيار لورانس براون مدرساً للأولاد؟

ولاحظت صوفيا ما فى سؤالى من سخرية فقطبت ما بين حاجبيها وقالت:

- ولم لا.. لعله أراد أن تكون بريندا سعيدة وألا تشعر بالملل، ولعله

قال لنفسه أن الثياب والمجوهرات لا تكفى لإسعادها ويجب أن يكون فى حياتها شىء من الرومانسية التى لا خطر منها. ومن المحتمل أن يكون قد رأى أنه رجلاً خجولاً من طراز لورانس براون هو الشخص المطلوب كطرف فى علاقة مع بريندا تجمع بين الصداقة والحب، وتمنع بريندا من التورط فى مغامرات فعلية مع آخرين فى الخارج.

لقد كان جدى بارعاً فى مثل هذه التدابير. طبيعى أنه لم يكن يتوقع أن ينتهى هذا التدبير بجريمة.

وصمتت قليلاً ثم قالت:

- إن معرفتى ببراعة جدى تجعلنى أكاد أرتاب فى أن بريندا هى التى قتلته، إذ لو أنها دبرت لارتكاب الجريمة بنفسها أو بالاشتراك مع لورانس، لعلم جدى بذلك.

- وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية.

- لندع الحديث فى هذا الموضوع يا تشارلس.. سأذهب الآن لإعداد الطعام.

- ألا تريدين أن أساعدك؟

- بل ابق هنا.. إن «نانى» تجن إذا رأت رجلاً فى المطبخ.

قالت ذلك وغادرت الغرفة، فتهالكت على أحد المقاعد.. وانصرفت إلى التفكير.

* * *

لقد عرفت وجهة نظر بريندا.. وعرفت كذلك وجهة نظر

صوفيا. التى هى أيضاً وجهة نظر الأسرة كلها، وخلصت مما سمعت أن آل ليونيدس لا يغفرون للأجنبى الذى يندس بينهم بوسائل يعتقدون أنها ملتوية.

ولعلهم فى ذلك على حق.

ولكن للموضوع ناحية إنسانية يصرون جميعاً على تجاهلها.

ذلك أنهم كانوا طوال حياتهم فى رغد من العيش، فهم لا يفهمون معنى الطموح عند الذين لم يملكوا فى حياتهم شيئاً.

وقد أرادت بريندا أن تظفر بكل ما حرمت منه:

ـ المال والترف، والأمان والبيت. وكان لها ما أرادت.. فى مقابل ما بذلته لإسعاد زوجها العجوز.

لقد شعرت بالعطف عليها حين سمعت قصتها. فهل يجب الآن أن أسترد هذا العطف وأنكره عليها؟

إنها مشكلة معقدة ذات وجهين.. فأيهما أصح؟

وكنت قد قضيت ليلة مسهدة واستيقظت مبكراً فى الصباح لأرافق تافرنر.. وكان جو قاعة الاستقبال دافئاً معطراً، والمقعد الذى أجلس فيه وثيراً.. فأغمضت عينى وما لبثت أن استغرقت فى نوم عميق.



الرجل الغامض!؟

استيقظت من نومى فى هدوء حتى كدت أن لا أصدق أننى نمت، ورأيت فوق رأسى بقعة بيضاء خيل إلى أنها لشبح فى الفضاء وانقضت بضع ثوان قبل أن أستجمع حواسى.

وأدرك أن هذه البقعة البيضاء لم تكن إلا وجهاً مستديراً لفتاة صغيرة نحيلة لها شعر كستنائى معقود خلف رأسها وعينان سوداوان جاحظتان.

قالت الفتاة وهى تنظر إلى بحدة:

- طاب يومك.

فغمغمت: طاب يومك.

قالت: أنا أدعى جوزيفين.

وكنت توقعت حالما رأيتها أنها جوزفين.. شقيقة صوفيا.

كانت فى نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، دميمة جدّا، وتشبه جدها شبهاً عظيماً... وخيل إلى أنها ربما قد ورثت

ذكاءه أيضاً.

قالت: أنت صديق صوفيا. ألست كذلك؟

فصمت، ولم أجب.

قالت:

- ولكنك جئت مع المفتش تافرنر.. لماذا؟

إنه أحد أصدقائي.

- أحقاً؟ إنه لا يعجبني.. ولذلك لن أقول له شيئاً.

- وماذا كان بودك أن تقولي له؟

- إنني أعرف أشياء كثيرة.

وجلست على طرف أحد المقاعد واستمرت تتفرس في وجهي بالحاح حتى بدأت أشعر بالضيق.

قالت: إن جدي قتل.. هل تعلم ذلك؟

- نعم.

- مات مسموماً بمادة الايزيرين.

ونطقت بكلمة «ايزيرين» ببطء ووضوح ثم استطردت قائلة:

- إنها مسألة مثيرة.. فما قولك؟

- أعتقد ذلك..

- إنها أثارتني.. أنا وأوستاش.. فنحن نحب القصص البوليسيه.. وطالما تمنيت أن أصبح بوليساً سريًا. وها قد تحققت أمنيتي. أنا الآن

أبحث عن أدلة.

كان كل شىء فيها يثير النفور.

قالت:

– ذلك الرجل الذى جاء مع المفتش تافرنر. هل هو أيضاً من رجال الشرطة؟ يقولون فى القصص البوليسيه أن الشرطى إذا ارتدى الملابس المدنية فيمكن معرفته من حذائه الضخم. ولكن حذاء هذا الرجل من النوع اللامع الجميل.

– كل شىء يمكن أن يتغير يا جوزيفين. حتى أساليب رجال البوليس.

فقالت بلهجة جدية:

– نعم.. كل شىء يمكن أن يتغير.. وسوف يحدث تغيير هنا أيضاً. إذ يحتمل أن نذهب للإقامة فى لندن. كانت أمى تتمنى ذلك منذ وقت طويل. أما أبى فتستوى عنده الإقامة فى أى مكان طالما أن كتبه على مقربة منه.. وفيما مضى لم يكن فى استطاعتنا الانتقال إلى لندن، لأن أبى خسر مبالغ طائلة فى جيزابيل.

– جيزابيل؟

– نعم.. هل شهدتها؟

– هل هى مسرحية؟ كلا.. لم أشهدها، لأننى لم أكن فى إنجلترا.

– إنها لم تمثل طويلاً.. ويمكن أن يقال أنها سقطت. وفى اعتقادى أن أمى لا تصلح لدور «جيزابيل»، فما رأيك أنت؟

وكنت قد رأيت ماجدا فى غلالة رقيقة، ثم رأيتها مرة أخرى فى

تاييـر أنيق.. ولم أجـد فى المرتين مـا يذكرنى بجـيـزابيل.. ولـكنى رأيت من الحكمة أن أجيب جوزيفين بأننى لا أستطيع أن أبدى رأياً فى هذا الموضوع فقالت:

– كان من رأى جدى دائماً أن المسرحية لن تحقق ربحا، وقال إنه لا يمكن أن يجـازف بتمـويل دراما دينيـة لأن الجـمـهور لا يقبل على هذا النوع من المسـرحـيـات. ولكن أمـى كـانت مـفـتـونة بدورها.. على أن المسرحية لم تعجبنى، لأنها قدمت جيزابيل فى صورة امرأة شريرة، خلافاً لما ورد فى الكتاب المقدس. ولكن النهاية لم تكن رديئة.. فقد ألقـوا بجـيـزابيل من النافـذة.. ومما يدعـو للأسف أنه لم تكن هناك كـلاب تلتـهـمـهـا، وقد قـالت أمى أنه لم يكن فى استطاعتهم تقديم الكلاب على خشبة المسرح. ولكنى أعتقد أنه كان بوسعهم استخدام كلاب مدربة.

ثم راحت تردد ما جاء فى الكتاب المقدس فى هذا الصدد:

«والتهمت الكلاب جسدها كله فيما عدا راحة يدها».

لماذا لا تلتهم الكلاب راحة يدها؟

– الحق أننى لا أعلم.

– لابد أنها كانت كلاباً ذات ذوق خاص. إن كلابنا تأكل كل شىء.

وراحت تفكر فى هذا السر، فقلت لكى أواصل الحديث معها:

– يؤسفنى أن المسرحية سقطت.

– كانت أمى تقرأ مـا كتبه النقاد عن المسرحية فتبكى أو تثور

غضباً، وبلغ غضبها ذات صباح أنها قذفت بصحفة الطعام فى وجه وصيفتها جلاديس. وقد ضحكت يومئذ حتى دمعت عيناى.

– يخيل إلى أنك تحبين المواقف الدرامية.

– هل تعرف أنهم قاموا بتشريح جثة جدى لمعرفة سبب وفاته؟

– نعم.. هل حزنت لوفاته يا جوزيفين.

– كلا. لم أكن أحبه كثيراً. فهو الذى منعنى من تعلم رقصات البالية.

هل كنت تريدين تعلم الرقص؟

– نعم. وقد وافقت أمى.. ووافق أبى أيضاً ولكن جدى قال إننى لن أصلح لشىء.

وهزت كتفيها، وقالت لتغير مجرى الحديث؟

– هل يعجبك بيتنا؟

– لست واثقاً من ذلك.

– من المحتمل أن يباع.. إلا إذا أصرت بريندا على البقاء فيه. ومن المحتمل جدّا كذلك أن يعدل العم روجر والعمة كليمنسى الآن عن الرحلة التى كانا يعتزمان القيام بها.

– هل كانا يعتزمان القيام برحلة؟

– نعم، كانا يعتزمان السفر بالطائرة يوم الثلاثاء إلى مكان ما فى أوروبا. بل وقد ابتاعت العمة كليمنسى فعلاً حقيبة صغيرة جميلة من تلك الحقائب الخفيفة التى تستخدم للسفر بالطائرات.

– إننى لم أسمع أى حديث عن هذه الرحلة.

– لا أحد يعلم بأمرها. كان مقرراً أن تظل سرًا لا يذاع إلا بعد رحيلهما.. وكان فى نيتهما أن يكتبا بشأنها رسالة لجدى.

– ولكن لماذا سيعدلان عن الرحلة؟ هل تعرفين السبب؟

فنظرت إلى بخبث وقالت:

– أظن أننى أعرف.. أنا لست على يقين ولكنى يخيل إلى أن العم روجر ارتكب بعض الاختلاسات.

– لماذا تقولين ذلك؟

فاقتربت منى وقالت فى همس:

– فى يوم وفاة جدى، ذهب إليه العم روجر فى غرفته ومكث معه وقتاً طويلاً تحدثا خلاله كثيراً، واتهم العم روجر نفسه بالضعف والغباء، وقال إنه لا يستحق الثقة التى وضعها فيه جدى.

فنظرت إليها بشىء من القلق وقلت لها:

– ألم يقل لك أحد يا جوزيفين أن الإنصات وراء الأبواب لا يتفق مع الخلق الكريم؟

فابتسمت وأجابت:

– طبعاً. ولكن كيف يعرف الإنسان حقائق الأمور إذا لم يسترق السمع وراء الأبواب؟ سل المفتش تافرنر يجبك بأنه لا يجد غضاضة فى ذلك.

ولم تدع لى فرصة للكلام واستطردت قائلة:

- وإذا لم يكن تافرنر يسترق السمع بنفسه، فإن زميله ذا الحذاء اللامع يفعل ذلك.. كلاهما يبحثان فى كل مكان. يفتحان الأدراج ويقرآن الرسائل وينبشان أسرار الجميع. ولكنهما ليسا من الذكاء بحيث يعرفان أين يجب أن يبحثا. أنا وأوستاش نعرف أشياء كثيرة. وأنا أعرف أكثر ولكنى لا أطلعه على معلوماتى، لأنه يزعم أن النساء لا يصلحن لأعمال البوليس السرى.. وأنا أعتقد غير ذلك، ولسوف أسجل معلوماتى فى دفتر أقدمه لرجال البوليس بعد أن يعترفوا بعجزهم وأقول لهم: إننى أعرف المجرم.

- هل تقرأين الكثير من القصص البوليسيه يا جوزيفين؟

- اقرأ المئات.

- وتظنين أنك تعرفين من قتل جدك؟

- لدى فكرة لم تنضج بعد، إذ لا أزال أفتقر إلى الأدلة.

وصمتت قليلاً ثم قالت:

- يعتقد المفتش تافرنر أن بريندا سممت جدى بالاتفاق مع لورانس. أليس كذلك؟ إنه احتمال وجيه خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن بريندا ولورانس يتبادلان الحب..

- لا يجب أن تقولى مثل هذا الكلام يا جوزيفين.

- ولم لا؟ أليست هذه هى الحقيقة؟

- لا أحد يعلم.

- ولكنهما يتبادلان الرسائل الغرامية.

– كيف علمت؟

– أنا أعلم لأننى قرأتها.. وجدتها تفيض بالعبارات العاطفية. وذلك لا يستغرب من شخص مثل لورانس أنه جبان إلى حد أنه خاف من الاشتراك فى الحرب، وعندما كانت الصواريخ تمرق فوق البيت، كان يرتجف فزعاً ويفر لونه فأغرق أنا وأوستاش فى الضحك.

* * *

وكان من الممكن أن يستمر حديثنا أكثر من ذلك لولا أن سمعنا فى هذه اللحظة صوت وقوف سيارة بباب البيت فأسرعت جوزيفين إلى النافذة وأطلت منها فسألتها:

– من القادم؟

– مستر جيتسكيل.. محامى جدى..

ـ وأظن أنه جاء من أجل الوصية.

وبدا عليها الانفعال، وأسرعت إلى قاعة الاستقبال، ربما لتواصل تحرياتها.

وجاءت ماجدا على الأثر ولشد ما كانت دهشتى حين رأيتها تقبل على وتتناول يدى بين يديها وتهتف قائلة:

– حمداً لله على أنك مازلت هنا!! فما أحوجنا إلى رجل فى هذا البيت!!

وتركت يدى، وجلست على مقعد، ونظرت إلى وجهها فى إحدى المرايا، ثم راحت تنقر بأناملها على حافة المائدة.

وأطلت صوفيا برأسها من الباب وقالت:

- جاء مستر جيتسكيل.

فقالت ماجدا:

- أعلم ذلك.

وعادت صوفيا بعد قليل برفقة رجل قصير القامة فنهضت ماجدا لاستقباله.

قال جيتسكيل:

- طاب يومك يا سيدتى.. لقد جئت لمقابلة زوجك إذ يبدو أن هناك سوء تفاهم بشأن الوصية.. فقد فهمت من رسالة بعث بها إلى أنه يعتقد أن الوصية عندى، ولكنى أظن مما سمعته من مستر أرستيد ليونيدس نفسه أن الوصية فى خزانته.. فهل تعلمين أين هى؟

ففتحت ماجدا عينها فى دهشة وقالت:

- أنا؟ كلا طبعا!! لا تقل لى أن تلك المرأة البغيضة قد أعدمتها.

فرفع المحامى سبابته محذراً وقال:

- كلا يا سيدتى.. كلا.. لماذا تلقين الاتهامات جزافاً؟ كل ما فى الأمر أننا نريد أن نعرف أين احتفظ مستر ليونيدس بوصيته.

- إنه أرسلها إليك.. أنا متأكدة.. لقد قال لنا ذلك بنفسه.

- فلم يكف جيتسكيل نفسه عناء تكذيبها وقال:

- لقد فحص رجال البوليس أوراق مستر ليونيدس سأتحدث فى

الأمر إلى المفتش.

وانصرف فصاحت ماجدا:

- إنها أعدمت الوصية.. لا شك عندى فى ذلك.

فقالت صوفيا:

- كلا يا أماه.. إنها لا تقدم على مثل هذه الحماقة.

- حماقة؟ ألا تعلمين أنه فى حالة عدم وجود وصية فإن التركة كلها تؤول إليها؟

- صه.. هو ذا جيتسكيل.

ودخل المحامى برفقة المفتش.. ودخل فيليب فى أثرهما..

قال المحامى:

- لقد فهمت مما صرح لى به مستر ليونيدس أنه أودع الوصية خزانة البنك.

فهز تافرنر رأسه وأجاب:

- إننى اتصلت تليفونيًا بالبنك وقيل لى أن مستر ليونيدس لم يودع به سوى بعض الأسهم والسندات وليست هناك أية أوراق خاصة.

- ربما كان روجر أو الخالة أديث يعلمان شيئاً.. هل لك أن تستدعيهما يا صوفيا؟

وجاء روجر وأكد أن أباه أرسل الوصية إلى المحامى بالبريد غداة يوم توقيعها.

فقال المحامى:

– إذا لم تكن الذاكرة قد خانتنى، فإننى أرسلت مشروع الوصية إلى مستر ليونيدس يوم ٢٤ نوفمبر الماضى فوافق عليه.. وبعد بضعة أيام قدمت إليه الوصية لتوقيعها.. ولما لم يردها إلى، اتصلت به بعد نحو أسبوع لأسأله عما إذا كان يريد أن يدخل عليها بعض التعديلات ولكنه أجاب بأنه وافق على كل ما جاء بها ووقع عليها بإمضائه وأودعها خزانة البنك الذى يتعامل معه.

فقال روجر:

كل هذا صحيح.. فقد حدث فى نهاية نوفمبر الماضى أن دعانا أبى للاجتماع به ذات مساء وتلا علينا وصيته.

فالتفت تافرنر إلى فيليب وسأله:

– هل حدث ذلك يا مستر ليونيدس؟

– نعم..

– وماذا كان مضمون الوصية يا مستر جيتسكيل؟

فقال روجر دون أن يدع فرصة للمحامى:

– كان مضمونها بسيطاً وواضحاً.. كانت شقيقتاى اليكترا وجويس قد توفيتا فعاد إلى أبى كل ما وهبه لهما فلم يبق من الورثة سواى أنا وفيليب فأوصى أبى بمبلغ خمسين ألف جنيه خالية الضرائب للخالة أديث وبمبلغ مائة ألف جنيه لبريندا التى أوصى لها كذلك بهذا البيت وقسم الباقى إلى ثلاثة أقسام متساوية، أحدها لى والثانى لفيليب

والثالث يوزع بالتساوى بين أولاد فيليب الثلاثة، صوفيا وجوزيفين، وأوستاش، على أن ينال الأخيران نصيبهما متى بلغا سن الرشد.. أظن أننى لم أخطئ يا مستر جيتسكيل؟

فأجاب المحامى:

– الواقع أن هذا هو ملخص الوصية التى كتبتها وفقاً لتعليمات مستر ليونيدس.

فقال روجر:

– لقد تلاها أبى علينا، وطلب إلينا أن نبدى ملاحظاتنا عليها.. ولكن لم تكن ثمة ملاحظات.

فقالت مس دى هافيلاند مستدركة:

– بل كانت هناك تعليقات بريندا.

فقالت ماجدا بسرور واضح:

– نعم.. لقد قالت أنها لا تطيق سماع الحديث عن موت عزيزها أرستيد.. وأنها لا تريد جنيها واحداً من أمواله إذا مات.

فقالت دى هافيلاند باحتقار:

– كان تعليقاً مبتذلاً لا ينم عن البيئة التى نشأت فيها.

لم يكن ثمة شك فى أنها تمقت بريندا كل المقت.

فسأل تافرنر:

– وماذا حدث بعد قراءة الوصية؟

فقال روجر:

– وقع أبى على الوصية.

– متى وكيف؟

فنظر روجر إلى زوجته مستنجداً.. فقالت كليمنسى:

– هل تريد أن تعرف كل التفصيلات عن توقيع الوصية؟

– نعم.. إذا تفضلت.

– وضع مستر أرستيد الوصية أمامه على المكتب وطلب إلى أحدنا– وأعتقد أنه روجر– أن يدعو خادمه الخاص جونسون، ولما جاء جونسون طلب إليه مستر أرستيد أن يأتى بالوصيفة جانيت وولمر.. وجاءت الوصيفة، وحينئذ وقع مستر أرستيد الوصية وطلب إلى الخادم والوصيفة أن يوقعا تحت إمضائه بصفتهما شاهدين.

فقال جيتسكيل:

– هذا إجراء قانونى لا غبار عليه.

فقال تافرنر:

وبعد ذلك..؟

– وبعد ذلك شكرهما وطوى الوصية ووضعها فى غلاف وقال إنه سيبعث بها إلى مستر جيتسكيل فى اليوم التالى..

فأجال تافرنر بصره بين الحاضرين وسأل:

– هل تم توقيع الوصية على هذا النحو؟

فأومأ الجميع برؤوسهم علامة الإيجاب، فقال محدثاً كليمنسى:

– قلت أنه وضع الوصية أمامه على المكتب.. هل كنت على مقربة منه وقتئذ؟

– كنت منه على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار..

– حينما قرأ مسيو ليونيدس الوصية.. هل كان جالساً أمام مكتبه؟

– نعم..

– وبعد أن قرأ الوصية، هل نهض وابتعد عن المكتب قبل أن يوقع عليها؟

– كلا..

– هل كان بوسع الخادمين قراءة الوصية وهما يوقعان عليها؟

– كلا.. فقد وضع مستر أرستيد على السطور المكتوبة قطعة ورق بيضاء.

فقال فيليب:

– فعل ذلك لسبب.. هو أن مضمون الوصية لا يعنيهما.

فأخرج المفتش من جيبه غلافاً مستطيلاً قدمه إلى المحامى وهو يقول:

– الق نظرة على ما فى هذا الغلاف وأنبئنى بما تراه.

فأخرج المحامى من الغلاف ورقة بسطها وألقى عليها نظرة سريعة وارتسمت على وجهه دلائل الدهشة.. وهتف:

- هذا عجيب.. هل لى أن أسألك أين وجدت هذه الورقة؟

- فى خزانة مستر ليونيدس.. وبين أوراقه.

فسأل روجر:

- ماذا فى هذه الورقة؟

فأجاب المحامى:

- أنها الوصية التى أرسلتها إلى أبيك لتوقيعها.. ومن عجب أنه لم يوقع عليها.. رغم ما قررتموه جميعاً.

فقال المفتش:

- لعلها صورة من الوصية..

- إن الصورة عندى فى مكتبى.

فصاح روجر:

- ولكن هذا مستحيل.

فسأله تافرنر:

- هل كان أبوك قوى البصر؟

- إنه يستعمل العوينات فى القراءة والكتابة..

- هل استعملها فى ذلك المساء؟

- نعم، ثم خلعها بعد التوقيع.

فقالت كليمنسى مؤكدة: نعم.. ذلك ما حدث تماماً.

– هل أنتم جميعاً على يقين من أن أحداً لم يقترب من المكتب قبل توقيع الوصية؟

فقالت صوفيا: لم يقترب أحد من المكتب، ولم يبرح جدى مكانه لحظة واحدة.

– هل كان المكتب فى مكانه الحالى؟ ألم يكن قريباً من أحد الأبواب أو إحدى النوافذ؟

– كلا.. كان فى مكانه حيث رأيته.

فقال تافرنر: ليس ثمة شك فى أن مستر ليونيدس قد وقع بإمضائه على الوصية التى قرأها عليكم. وما أريد معرفته الآن هو كيف استبدلت الوصية التى تحمل توقيعه وتوقيعى الشاهدين. بهذه الوصية الخالية من التوقيعات.

فقال روجر:

– ألا يحتمل أن يكون بعضهم قد عمل على إزالة التوقيعات؟

– إن عملية الإزالة لابد أن تترك أثراً.. ومن المرجح أن هذه الورقة ليست الوصية التى أرسلها مستر جيتسكيل إلى مستر أرستيد ليونيدس والتى تلاها هذا الأخير عليكم..

فصاح المحامى: هذا مستحيل.. أقسم أنها نفس الوصية الأصلية، إن فى أعلى الورقة إلى اليسار صورة صغيرة لطائرة.. وها هى الصورة.

فقالت مس دى هافيلاند: المهم.. هو أن يعرف موقفنا الآن.

فقال جيتسكيل:

- إن هذه الوصية تجب سائر الوصايا التى كتبها أرستيد ليونيدس من قبل.. ويوجد أكثر من شاهد على أنها تتضمن رغباته.. وأنها الوثيقة التى أعتقد أنه وقع عليها..

فرغباته إذن معروفة.. ولكننا نجد أنفسنا الآن حيال مشكلة قانونية غاية فى الدقة.

فنظر تافرنر إلى ساعته وقال:

- أخشى أن أعوقكم عن الطعام.

فقال فيليب:

- لماذا لا تتناول الغداء معنا أيها المفتش؟

- شكراً لك يا سيدى.. ولكنى على موعد مع الدكتور جراى..

- وأنت يا مستر جيتسكيل.. ألا تتناول الطعام معنا؟

- بكل سرور يا فيليب.

ونهض الجميع، فهمست فى أذن صوفيا بأننى أوثر الرحيل، فقالت لى أن ذلك أفضل..

وهكذا غادرت الغرفة مهرولاً لألحق بالمفتش تافرنر..



الدافع المجهول

دخلت مكتب أبى فى «اسكتلند يارد» حينما كان المفتش تافرنر يعرض عليه نتيجة أبحاثه..

كان يقول وعلى وجهه دلائل الامتعاض:

- وها أنت ترى أننى سبرت أغوارهم، وعرفت ما فى سرائرهم.. وماذا كانت النتيجة؟ لا شىء.. لم أهتد إلى القاتل.. ولا إلى الدافع إلى الجريمة.. وكل ما عرفته عن المرأة وعشيقها.. أنها كانت تحدجه بنظرات والهة وهى تقدم له أقداح القهوة..

فقلت له:

- يبدو أننى أعرف ما هو أهم من ذلك يا تافرنر..

- حقاً؟ حدثنى إذن بما تعرف.

فجلست وأشعلت لفافة تبغ وأفرغت ما فى جعبتى:

وقلت:

- كان روجر وزوجته يتأهبان للسفر إلى الخارج يوم الثلاثاء القادم.. وقد شجر خلاف شديد بين روجر وأبيه فى يوم وفاة هذا

الأخير على أثر اكتشاف الأب بعض الأخطاء الخطيرة فى الشركة التى يديرها الابن وقد اعترف الابن بذنبه.

فهتف تافرنر وقد احمر وجهه:

– من أين علمت بكل هذا بحق الشيطان؟ إذا كنت قد استجوبت الخدم فإن..

– إننى لم أتصل بالخدم.. وهذه المعلومات قد استقيتها من بوليس سرى خاص..

– ماذا تقول؟

– ويبدو– كما فى القصص– أن البوليس السرى الخاص تفوق على رجال البوليس الرسميين.. وأنه فيما أعتقد يعرف أكثر مما ذكره لى.

ففتح تافرنر فمه ليتكلم ولكنه لم ينطق بحرف..

كانت هناك أسئلة كثيرة تتحير على شفتيه ولا يعلم بأيها يبدأ.

وأخيراً قال:

– إذن روجر هو ضالتنا؟

فحدثته بكل ما ذكرته لى جوزيفين.. وأعترف بأننى فعلت ذلك على كره منى.. فقد كنت أعطف على روجر ولا أود أن أطلق رجال الشرطة فى أثره.

ولكنى كنت أعلم أنه لو صح ما قالته جوزيفيين.. فإن التحقيق لابد أن يأخذ اتجاها آخر. إذ سيجد البوليس فى اختلاس روجر لأموال الشركة المتحدة للمواد الغذائية وفى اكتشاف الأب هذا الاختلاس

تفسيراً للجريمة خاصة وأن روجر كان ينوى مغادرة إنجلترا قبل أن تظهر الحقيقة.

قال أبى:

- يجب أولاً أن نعرف حقيقة مركز الشركه.

فقال تافرنر:

- إذا كانت الشركة تواجه متاعب مالية.. فإن ذلك ينهى الموضوع.. وتكون الجريمة قد حدثت على النحو التالى: دعا العجوز ابنه روجر ووجه إليه الاتهام، فانهار الابن واعترف، وكانت بريندا وقتئذ فى السينما فخرج روجر من غرفة أبيه وذهب إلى الحمام، وأفرغ إحدى زجاجات الأنسولين وملأها بمادة الايزيرين.. وربما يكون قد طلب إلى زوجته أن تفعل ذلك فإنها روت لنا أنها ذهبت إلى شقة العجوز بدعوى البحث عن غليون نسيه زوجها هناك.. إنها امرأة قوية الإرادة، رابطة الجأش ومن الممكن جدًا أن ترتكب هذه الجريمة.

فأطرقت برأسى موافقاً واستطرد تافرنر قائلاً:

- والرأى عندى أنها أقدر من زوجها على القيام بهذا الدور.. ثم أن روجر ليس الرجل الذى يفكر فى الايزيرين كوسيلة لارتكاب الجريمة. فالسم كان دائماً لعبة المرأة.

فقال أبى:

- إننى لا أستبعد أن تكون فعلت ذلك فى محاولة يائسة لإنقاذ زوجها.

* * *

وفى اليـوم التـالى دعـانى أبى إلى مكتبـه وهنـاك وجـدت المفـتش تافرنر ووجهه يتهلل بشراً..

وابتدرنى أبى بقوله:

- إن الشركة المتحدة للمواد الغذائية تواجه متاعب مالية خطيرة.

وأضاف تافرنر:

- وقد يعلن إفلاسها بين لحظة وأخرى..

فقلت:

- الواقع أننى قـرأت ضـمن أنبـاء الدوائر المـاليـة، أن سـعـر أسـهم الشركة هبط أمس هبوطاً شديداً..

فقال تافرنر:

- إننا قمنا بتحرياتنا بحذر شديد حتى لا نثير فزع حملة الأسهم، أو انتباه روجر ليونيدس، فعلمنا أن مركز الشركة سىء إلى أقصى حد، وأنها تدهورت باطراد خلال السنوات الأخيرة بسبب سوء الإدارة.

- سوء إدارة روجر ليونيدس؟

- طبعاً.. إنه رئيس مجلس الإدارة.

- وهل اختلس شيئاً من أموال الشركة؟

- كلا.. نحن لا نعتقد أنه اختلس مالاً.. إنه قد يكون قاتلاً ولكنه ليس محتالاً.. ولعل أبرز صفاته أنه مغفل لا يحسن الحكم على الأمور أو الأشـخـاص.. كـان يعـمل على التـوسع حـيث يجب الانكمـاش.. وبالعكس.. وقد وضع ثقته فيمن لا يستحقها، ومنح سلطات واسعة

لأشخاص لا يحسنون استخدامها.. صفوة القول أنه كان يفعل دائماً ما لا يجب أن يفعله.

كانت الشركة عندما تسلم إدارتها منجماً للذهب، ولكنه أضاعها بغبائه وعجزه.. وقد علمت أنه احتفظ بعدد كبير من الموظفين الذين لا يصلحون للعمل.. لمجرد أنه يعطف عليهم شخصيًا أو لأنهم قضوا فى الشركة مدة طويلة.. كما علمت أنه بدد أموالاً طائلة فى مشروعات غير مثمرة..

- وهل أقدم على عمل يضعه تحت طائلة القانون..؟

- كلا..

- إذن لماذا ارتكب جريمة القتل؟

- لأنه لم يكن هناك ما ينقذ الشركة من الإفلاس إلا أن يحصل قبل يوم الأربعاء القادم على مبلغ كبير من المال..

- كالمبلغ الذى سيرثه؟

- تماماً..

- ولكنه لن يحصل على نصيبه من الميراث فوراً..

- إنه بحاجة إلى الثقة والضمان.. فإذا أذيع أنه سيرث فإن ذلك يكفى..

فقال أبى:

- ألم يكن أيسر عليه أن يذهب إلى أبيه ليطلب معونته؟

فقال تافرنر:

- أعتقد أنه ذهب إلى أبيه لهذا الغرض. وأن الحديث الذى دار بينهما هو ذلك الحديث الذى سمعته جوزيفين ومن المرجح أن العجوز رفض.. ولعله وجد أن لا فائدة من محاولة استرداد الخسائر.. كان رجلاً حصيفاً يضن بماله أن يضيع سدى..

وهنا تذكرت ما قالته جوزيفين عن رفض العجوز تمويل مسرحية ماجدا.. لأنه قدر لها السقوط، وأثبتت الأيام سلامة تقديره.

لقد كان العجوز كريماً مع أولاده وذويه.. ولكنه كان أحرص من أن يبدد أمواله فى مشروعات مقضى عليها بالفشل..

ويبدو أن الشركة المتحدة للمواد الغذائية كانت بحاجة إلى مئات الألوف من الجنيهات لكى تقف على قدميها.. ولكن العجوز رفض تقديم هذا المبلغ فلم يجد روجر وسيلة لتجنب الإفلاس إلا أن يقتل أباه.

هذا إذن هو «الدافع» الذى كنا نبحث عنه..

ونظر أبى إلى ساعته وقال:

- لقد دعوته للحضور.. وسيصل بين لحظة وأخرى..

- من؟؟ روجر؟

- نعم..

وتذكرت أسطورة العنكبوت الذى دعا الذبابة لدخول غرفته.

كان كل شىء معدّا لاقتناص الفريسة.. فأبى يتحرق شوقاً للقاء المتهم وفى أحد الأركان ضابط على استعداد لتسجيل كل ما يقال.

وأخيراً جاء روجر...

قال والكلمات تقتتل فى فمه كالعادة.

- هل طلبتم مقابلتى؟ هل وجدتم أدلة جديدة؟ آه.. معذرة يا تشارلس. الحق أننى لم أرك.. شكراً لك على حضورك. ولكن حدثنى يا سير آرثر..

ولكن أبى كان يجلس جلسة رسمية.. وقد بادره بالعبارات التقليدية التى توجه عادة إلى كل متهم. من أنه سيحاسب على كل كلمة ينطق بها. وعن حقه فى الامتناع عن الإجابة إلى أن يحضر محاميه.

وهز روجر كتفيه ببساطة، وقال إنه يعرف الإجراءات البوليسية. وأنه ليس بحاجة إلى محام.

فقال أبى:

- لقد دعوتك يا مستر ليونيدس.. لا لأنهى إليك معلومات جديدة. وإنما لأطلب إليك الإدلاء بما لديك من معلومات حبستها عنا.

فبهت روجر وقال: ولكنى أنبأتكم بكل شىء..

- لا أظن ذلك.. هل قابلت أباك بعد ظهر اليوم الذى توفى فيه؟

- نعم، تناولت الشاى معه، وقد قلت لكم ذلك..

- صحيح أنك قلت ذلك.. ولكنك لم تذكر شيئاً عن الحديث الذى دار بينك وبينه.

- كان حديثاًعاديًا..

- عن أى شىء؟

- عن أحداث اليوم.. وعن المنزل.. وصوفيا.

- ألم تتحدثا عن الشركة المتحدة؟

وكنت حتى تلك اللحظة أرجو أن يكون ما سمعته من جوزيفين مجرد أوهام من صنع خيالها، ولكن هذا الرجاء تبدد حالما رأيت اضطراب روجر وشحوب وجهه..

تهالك على أحد المقاعد وغمغم وهو يدفن وجهه بين كفيه.

- يا إلهى!!

وابتسم تافرنر كمن يريد أن يقول: وقع الفأر فى المصيدة!!!

قال أبى:

- أتعترف يا مستر ليونيدس بأنك لم تكن صريحاً معنا؟

- ولكن كيف علمتم؟ كنت أظن أن لا أحد يعلم.. فقال له أبى أن البوليس يعرف عمله واستطرد قائلاً:

- ألا ترى الآن يا مستر ليونيدس أن من مصلحتك أن تصارحنا بالحقيقة؟

- طبعاً سأصارحك بكل شىء.. فماذا تريد أن تعرف؟

- هل صحيح أن الشركة المتحدة على شفا الإفلاس؟

- نعم. لا مناص من إفلاس الشركة.. ليت أبى فقط قد مات دون أن يعلم ذلك.. إننى أشعر بالخجل والعار.

- هل سيؤدى إفلاس الشركة إلى إجراءات جنائية..

فاعتدل روجر فى جلسته ورفع رأسه بكبرياء وأجاب:

– كلا.. طبعاً.. سنتوقف عن العمل ولكن بشرف وسيحصل الدائنون على أموالهم كاملة.. حتى ولو صفيت كل ممتلكاتى.. كلا.. إن ما يخجلنى هو أننى لم أكن جديراً بالثقة التى شرفنى بها أبى.. إنه وضعنى على رأس أقوى شركاته وأعزها عليه.. ولم يتدخل قط فى أعمالى ولم يسألنى عما أفعل.. كانت ثقته بى كاملة ولكنى لم أكن جديراً بها..

فسأله أبى بجفاء:

– إذا لم تكن هناك إجراءات قانونية تخشاها.. فلماذا فكرت فى الفرار مع زوجتك إلى الخارج دون أن تخطر أحداً؟

– هل تعلم ذلك أيضاً؟

– نعم يا مستر ليونيدس..

– أنت إذن لا تعرف موقفى.. كان مستحيلاً على أن أقابل أبى وأصارحه بالحقيقة.. ولو قد فعلت لظن أننى أطلب مساعدته.. ولسارع إلى مساعدتى.. دون تردد لأنه كان يحبنى.. ولكنى لم أكن أريد ذلك.. لم أكن أريد للشركة أن تستمر.. لأننى خشيت أن أتعثر مرة أخرى أننى لست كفؤاً لإدارة شركة ضخمة كهذه.. كنت أعلم منذ البداية أننى لست فى ذكاء أبى.. ولكنى بذلت قصارى جهدى وفشلت.

لا أحد يعلم كم شقيت لأنقذ الشركة على أمل ألا يعلم الرجل الطيب الكريم بحقيقة الموقف، ولكن جهودى ذهبت سدى، وجاءت اللحظة التى أدركت فيها أن لا مناص من الإفلاس. فبحثت الموقف مع زوجتى.. وقررنا فى النهاية ألا نصارح أحداً بالحقيقة، وأن نرحل قبل

أن تهب العاصفة.. وكان فى نيتى أن أترك رسالة لأبى أوضح له فيها كل شىء.. وأضرع إليه أن يصفح عنى.. وقدرت أن تصله الرسالة حين تكون بالشركة قد انهارت وفات أوان إنقاذها.

وقد صحت عزيمتى على أن أشق طريقى فى الحياة من جديد فى أى بلد آخر. وأنا أعلم أن الحياة لن تكون سهلة بالنسبة إلى.. أو بالنسبة إلى كليمنسى.. التى ستضحى بالكثير.. ولكنها لن تحجم عن أية تضحية.

إنها امرأة عظيمة.. ورائعة..

فقال أبى بنفس اللهجة الجافة:

– ولماذا عدلت إذن؟

– عدلت؟

– نعم.. لماذا ذهبت إلى أبيك فى النهاية لتطلب معونته؟

فحملق روجر فى دهشة وقال:

– أنا لم أطالبه بأية معونة.

– إننى أريد الحقيقة يا مستر ليونيدس.

– هذه هى الحقيقة، أنا لم أذهب إليه.. هو الذى أرسل فى طلبى.. ويبدو أنه عرف الحقيقة بطريقة ما.. فواجهنى بها.. واضطررت أن أعترف بكل شىء.. وقلت له أن خسارة المال لا تعدل عندى إحساسى بأننى لم أكن أهلاً لثقته..

وأزدرد روجر لعابه ومضى فى حديثه، وقال:

- لم يؤنبنى، وكان رقيقاً غاية الرقة، فصارحته بأننى لا أريد مساعدته وأننى مصمم على مغادرة البلاد. ولكنه أبى أن ينصت إلى، وصمم على ضرورة إنقاذ الشركة..

فقال أبى بلهجة صارمة:

- هل تريدنا على أن نصدق أن أباك كان يعتزم معاونتك ماليّا؟

- نعم، إنه كتب على الفور رسالة إلى البنك ضمنها تعليماته لهذا الغرض.

فنظر إليه أبى بارتياب، فقال روجر وقد احمر وجهه خجلاً:

- إن هذه الرسالة لا تزال معى.. كان ينبغى أن أرسلها بالبريد ولكنى نسيت فى غمرة الاضطراب الذى أعقب موت أبى..

- أظن أنها معى.

وبحث فى محفظته ووجد الرسالة وقدمها إلى أبى وهو يقول:

- اقرأها بنفسك ما دمت لم تصدقنى.

ففض أبى الرسالة، وأطل تافرنر من فوق كتفه..

وقرأها معه.. وكانت تتضمن- كما علمت فيما بعد- أمراً إلى البنك ببيع عدد من الأسهم والسندات، وإرسال مندوب فى صباح اليوم التالى ليتلقى من أرستيد ليونيدس تعليمات خاصة بالشركة المتحدة للمواد الغذائية.

إذن لم يكذب روجر.. حين قال أن أباه كان مصمماً على إنقاذ الشركة.

قال تافرنر:

- سنحتفظ بهذه الرسالة يا مستر ليونيدس، وسنعطيك إيصالاً بها..

فقال روجر وهو ينهض:

- هل لديكم أسئلة أخرى؟ هل اقتنعتما؟

فقال تافرنر وهو يقدم إليه الإيصال..

- ماذا فعلت بعد أن أخذت الرسالة ووضعتها فى جيبك يا مستر ليونيدس؟

- ذهبت إلى شقتى وكانت زوجتى قد عادت فأنبأتها كم كان أبى عظيماً ورائعاً.. وغلبنى التأثر والانفعال فلم أدر ماذا أفعل.

- عندما ذهبت لمقابلة أبيك.. هل عرجت على الحمام المتصل بغرفته؟

- لا أظن.. كلا.. أنا واثق من أننى لم أدخل الحمام.. هل تظن أننى الذى..

فلم يدعه أبى يعبر عن استنكاره، ونهض بسرعة، وتناول يديه وهو يقول:

- شكراً لك يا مستر ليونيدس.. إنك زودتنا بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية كان من الخطأ أن تكتمها طوال هذه المدة.

* * *

وانصرف روجر، فتناولت رسالة أرستيد ليونيدس. وكانت لا تزال على مكتب أبى، وقرأتها..

فقال تافرنر وهو لا يزال يتعلق بأذيال الأمل:

- ألا يحتمل أن تكون الرسالة مزورة..

فقال أبى:

- لا أظن ذلك.. وأعتقد أننا يجب أن نفهم الموقف على النحو التالى: كان العجوز يستعد لإنقاذ ابنه من الإفلاس، وكان أقدر على ذلك من ابنه بعد أن يرث.. ونحن نعلم الآن أنه لا توجد وصية، وأن حق روجر فى الميراث مشكوك فيه.. ومعنى هذا أن الشركة لابد أن تفلس ومعناه أيضاً أن روجر وزوجته لم تكن لهما أية مصلحة فى وفاة العجوز.. بل على العكس..

وكف عن الكلام فجأة.. كما لو كان قد خطر له خاطر جديد.

وبعد لحظة، قال ببطء:

- إذا كان أرستيد ليونيدس قد عاش ولو يوماً آخر لنجا روجر من الإفلاس.. ولكنه لم يعش.. ومات بعد ساعة أو نحو ساعة.

فقال تافرنر:

- هل تعنى أن فى البيت من يهمه إفلاس روجر؟

فصمت أبى قليلاً ثم قال:

- أو من يهمه أن تبقى ثروة العجوز كما هى، فلا يبدد جانباً منها لتقويم شركة لا أمل فيها..

وبهذه المناسبة.. من يرث العجوز فى حالة اختفاء الوصية؟

- بريندا ليونيدس..

- إذن لا شك أن لها ضلعاً فى الجريمة..

وقبل أن أبرح المكتب قال لى أبى:

- إن خير ما تفعله يا بنى، هو أن تحاول كسب ثقة هؤلاء الناس، وقد كانت صوفيا على حق حين قالت لك أن من مصلحتكما أن تظهر الحقيقة.

ثم استطرد قائلاً وأنا أهم بالانصراف:

- شىء آخر أريد أن أقوله لك..

أسهر على الصغيرة.. فأننى أخشى أن يصيبها سوء.

- تعنى جوزيفين؟

- نعم، إن فى ذلك البيت قاتلاً لا يفتقر إلى الدهاء ومضاء العزيمة، وجوزيفين فيما يبدو تعلم أشياء كثيرة.

- مما لا شك فيه أنها كانت تعلم كل شىء عن روجر، أمر واحد أخطأت فيه.. هو أن روجر لم يكن نصاباً.. أما باقى معلوماتها فكانت صحيحة.

- أنا شخصيّا أعول دائماً على كلام الصغار ولا أهمله.. وخير وسيلة لاستدراجهم إلى الكلام أن لا توجه إليهم أسئلة مباشرة.. دعهم يتكلمون على هواهم، ولا تسألهم عن موضوع بذاته.. ومن الواضح أن جوزيفين تريد أن تفضى إليك بأمور لا علم لك بها.. ومهمتك فى هذه الحالة هى أن تعيرها أذنا صاغية وتشجعها على الكلام.. والرأى عندى أن تتحدى ذكاءها فتقول لها مثلاً أنها لا تعرف شيئاً.. وسوف تكون النتيجة أنها تبذل قصارى جهدها لتثبت العكس.

المهم هو أن تسهر على سلامتها.. فقد يكون هناك من يعتقد أنها تعرف أكثر مما ينبغى.

لعبة شد الأعصاب

غادرت مكتب أبى وأنا أشعر بالقلق
ووخز الضمير..

صحيح أننى نقلت إلى تافرنر كل ما قالته جوزيفين عن روجر.. ولكنى لم أذكر كلمة واحدة عن الرسائل الغرامية التى زعمت الصغيرة أن بريندا ولورانس يتبادلانها..

وحاولت أن أجد لنفسى عذراً فقلت إن حكاية الرسائل قد لا تكون صحيحة.. وإذا صحت فقد لا تكون ذات أهمية.. ولكن الحقيقة التى لا شك فيها، هى أننى كنت أنفر من اتهام بريندا، وأشعر بالعطف عليها.. لمجرد أنها وحيدة فى بيت يمقتها كل أهله.. وإذا كانت هناك رسائل غرامية فمن المحقق أن تافرنر وأتباعه سيعثرون عليها عاجلاً أو آجلاً.. فليس ثمة إذن ما يدعونى إلى تنبيههم.. يضاف إلى ذلك أن بريندا أكدت لى أنه ليست هناك أية صلة عاطفية بينها وبين لورانس، وأنا أميل إلى تصديقها أكثر مما أصدق تلك الشيطانة الصغيرة جوزيفين.

* * *

واتصلت تليفونيّا بصوفيا لأسألها عما إذا كانت تسمح لى بزيارتها فأجابت على الفور: بكل تأكيد يا تشارلس..

- كيف تسير الأمور فى البيت؟

- لا أعلم.. مازال رجال الشرطة يفتشون.. هم يبحثون؟

- ليست لدى أية فكرة.

- إن وجودهم يشد أعصابنا. فحاول أن تأتى بأسرع ما تستطيع. لأننى سأجن إذا لم أجد من أحدثه..

فاستأجرت إحدى سيارات الأجرة وذهبت إلى بيتها ووجدت الباب مفتوحاً، فترددت بين أن أقرع الجرس أو أن أدخل مباشرة، وقبل أن أقطع برأى شعرت بحركة خلفى، فنظرت، ورأيت جوزيفين ترقبنى من بعيد، ووجهها الصغير يكاد يختفى وراء تفاحة ضخمة تقضمها.

اقتربت منها وحييتها:

- طاب يومك يا جوزيفين!!

ولكنها لم تجب.. وتراجعت إلى مقعد خشبى على حافة حوض صغير تسبح فيه الأسماك الملونة.. فلحقت بها، ورأيتها تنظر إلى من فوق التفاحة ببغض واستنكار..

قلت لها:

- هأنذا قد عدت يا جوزيفين.

ولكنها لم تجب، وضايقنى صمتها..

قلت:

- هل هذه التفاحة ناضجة؟

فتنازلت أخيراً وأجابت:

- إنها جافة.

- هذا أمر يؤسف له.. أنا لا أحب التفاح الجاف..

لماذا لم تردى تحيتى عندما حييتك.

- لأنها لا تعنى شيئاً.

- لماذا؟

فابتلعت ما فى فمها قبل أن تجيب:

- لأنك تحدثت إلى رجال البوليس:

فدهشت، ولاحظت هى دهشتى واستطردت قائلة..

- نقلت إليهم ما ذكرته لك عن العم روجر..

- ولكنى فعلت ذلك لمصلحة الجميع يا جوزيفين.. ورجال البوليس يعلمون الآن أنه لم يقدم على عمل مخالف للقانون..

فرمقتنى باحتقار وقالت:

- يا لك من غبى!!

- أنا آسف يا جوزيفين..

- إن العم روجر لا يهمنى.. وإذا كنت ناقمة عليك فلأن ما فعلته يتعارض مع أصول عمل البوليس السرى.. ألا تعلم أنه ليس من الحكمة الإفضاء لرجال البوليس بشىء قبل الانتهاء من التحريات؟

- أكرر لك آسفى يا جوزيفين؟

- إننى فقدت ثقتى فيك..

فعبرت لها عن أسفى للمرة الثالثة.. وحينئذ فقط انبسطت أسارير وجهها، وقضمت قطعة كبيرة من التفاحة..

قلت:

- على كل حال كان رجال البوليس سيعلمون فى النهاية.. فهذه أمور لا يمكن إخفاؤها طويلاً..

- لأنه سيفلس؟

- أعتقد أن ذلك أمر لا مناص فيه.

- إنهم سيناقشون هذا الموضوع الليلة وسيعقدون اجتماعاً يشترك فيه أبى وأمى والعم روجر والخالة أديث وقد عبرت الخالة عن استعدادها لوضع كل نصيبها من الميراث تحت تصرف العم روجر.. والعقبة الوحيدة هى أنها لم تحصل على نصيبها بعد.. أما أبى فإنه يقول إن المشكلة تخص روجر وحده ولا شأن له بها.. وإن من الغباء محاولة استرداد الخسارة.. بمزيد من الخسائر.. وهذا أيضاً هو رأى أمى التى تريد أن يحتفظ أبى بنقوده لتمويل مسرحية «أديث تومبسون».. وبهذه المناسبة. هل تعرف قصة أديث تومبسون. إنها كانت متزوجة وكانت تكره زوجها لأنها أحبت شابًا يدعى «بايووترز» وانتهى الأمر بأن طعن الشاب زوج عشيقته فقتله..

ومرة أخرى، لم يسعنى إلا الإعجاب بوفرة معلومات هذه الصغيرة. ولكنى أردت استدراجها إلى ما هو أهم فقلت لها:

- أظن أنك قلت لى يا جوزيفين أنك قد وفقت إلى معرفة القاتل..

– وماذا فى ذلك؟

– ما اسمه؟

فنظرت إلى باحتقار وأدركت غرضها.

قلت:

– فهمت.. تريديننى أن أنتظر حتى تفرغى من تحرياتك.. ولكنى أعدك بألا أذكر شيئاً للمفتش تافرنر..

– إننى مازلت أبحث عن أدلة.

– الرسائل؟

– الرسائل؟ إنك لم تحدثينى عنها..

– أية رسائل؟

– تلك التى تبودلت بين بريندا ولورانس..

– لقد ذكرت لك ما أعرفه عنها..

– إننى لا أصدق أن هناك مثل هذه الرسائل.

فحملقت فى وجهى.. وترددت..

وسمعت فى هذه اللحظة صوتاً كالذى يحدثه تحطم غصن جاف تحت قدمى إنسان.

قلت لها:

– على رسلك يا جوزيفين.. يخيل إلى أنك لا تعرفين شيئاً على وجه اليقين.

ولكنها لزمت الصمت.. ولم تقع فى الفخ.

ولم يسعنى إلا التسليم بالهزيمة.

قلت:

- يجب أن أذهب الآن لمقابلة صوفيا .. تعالى معى.

- كلا .. سأبقى هنا.

- كلا .. يجب أن تأتى معى..

وأمسكت بيدها وأرغمتها على النهوض.. فدهشت فى البداية، وقاومت.. ولكنها ما لبثت أن استسلمت.. وتبعتنى إلى البيت صاغرة.

ولم أدر على الفور.. ماذا حملنى على إرغامها على مرافقتى.. ولكنى أدركت السبب وأنا أدخل البيت..

كان السبب هو ذلك الغصن الجاف الذى سمعته يتحطم تحت قدمى إنسان ربما كان يرقبنا دون أن نراه..



حقنة الإبزيرين

سمعت لغطا فى قاعة الاستقبال
فوقفت ببابها متردداً ثم قررت ألا
أدخل..

وواصلت السير فى دهليز طويل مظلم ينتهى بباب ما كدت أقترب منه حتى فتح وانبعث منه نور قوى، ورأيت فى إطار الباب امرأة متقدمة فى السن، بدينة الجسم، ترتدى مئزراً ناصع البياض.. فأدركت على الفور أنها «نانى»..

لست أذكر أننى قابلتها من قبل.. ولكنها رغم ذلك بادرتنى بقولها:

– ألست مستر تشارلس؟ ادخل ودعينى أقدم لك قدحاً من الشاى.

* * *

كان المطبخ فسيحاً، فجلست أمام مائدة كبيرة فى وسطه. وقدمت لى نانى قدح شاى وبعض البسكويت.

كنت فى الخامسة والثلاثين ولكن أحسست معها بأننى مازلت طفلاً فى الرابعة من عمره.

قالت:

– ستسر الآنسة صوفيا متى علمت بقدومك..

ـ لقد بدأت أعصابها تنهار.

ثم أضافت باستياء:

– كالجميع.

فنظرت من فوق كتفى وسألت:

– أين جوزيفين؟ إنها جاءت معى.

فهزت نانى رأسها وقالت:

– إنها مخلوقة عجيبة.. لا هم لها إلا استراق السمع على الأبواب.. أو كتابة لا أدرى ماذا فى دفتر صغير تحتفظ به دائماً ولا تتركه .

كان ينبغى أن يبعثوا بها فى المدرسة لتلهو مع الأطفال الذين فى مثل سنها.. لقد قلت ذلك لمس أديث فوافقتنى ولكن السيد العجوز آثر أن تبقى هنا..

– أظن أنه كان يحبها كثيراً؟

– كان يحبهم جميعاً يا سيدى.

وفتح الباب فى هذه اللحظة ودخلت صوفيا وهتفت:

– تشارلس!! أنت هنا؟؟ كم أنا سعيدة بقدومك!!

وحملت نانى بعض الصحاف وذهبت بها إلى غرفة داخلية وأغلقت بابها.. فنهضت إلى صوفيا واحتويتها بين ساعدى، ولم أتمالك من أن أهتف:

- إنك ترتجفين أيتها العزيزة.. فماذا حدث؟

- إننى خائفة يا تشارلس.. خائفة..

- إذا كنت تريدين مغادرة هذا البيت.

فقاطعتنى: كلا يا تشارلس، يجب أولاً أن نعرف الحقيقة، وسأبقى هنا حتى نعرفها.. إنها تجربة مخيفة حقًا.. وكلما فكرت فى أنه يوجد بهذا البيت إنسان أراه كل يوم وأتحدث إليه.. ولعله يبتسم لى فى بعض الأحيان فى الوقت الذى يخطط فيه لإرتكارب أبشع الجرائم.

ماذا كان بوسعى أن أقول لها؟ وهل تجدى العبارات المألوفة المبتذلة فى طمأنة فتاة مثقفة من طراز صوفيا؟

قالت بصوت خافت: إن ما يزعجنى أكثر من أى شىء آخر.. هو احتمال أن لا نعرف أبداً من هو هذا الإنسان!!

كان الاحتمال بعيداً، ولكنه ذكرنى بسؤال كان فى نيتى أن ألقيه عليها.. قلت لها:

- حدثينى يا صوفيا.. من فى هذا البيت يمكن أن يعلم بموضوع الايزيرين؟ أو بالتحديد.. من كان يعلم «أولاً» بأن كمية معينة من هذا السم يمكن أن تقتل..

- إننى أدرك ما ترمى إليه يا تشارلس.. ولكن لا فائدة من ذلك.. لقد كنا جميعاً نعرف هذه الأمور.

- ولكن..

- أصغ إلى.. حدث يوما أننا كنا نتناول القهوة مع جدى بعد

الطعام.. وكانت عيناه تؤلمانه منذ بعض الوقت وقد اعتادت بريندا أن تسكب قطرات من الايزيرين فى عينيه كل ليلة.. وهى شغوفة بالاستفسار عن كل شىء فسألته عن معنى العبارة المكتوبة على قنينة الايزيرين: «قطرة تستعمل من الظاهر»، فأوضحنا لها المعنى، فسألته:

– وماذا يحدث للإنسان إذا شرب ما فى هذه القنينة؟

فابتسم جدى وأجاب:

– إذا حدث أن أخطأت بريندا وأعطتنى حقنة من الايزيرين بدلاً من الأنسولين فإننى قد أموت..

فهتفت جوزيفين بارتياح:

– يا إلهى!!

فقال جدى وهو لا يزال يبتسم:

– ولهذا يجب أن نحرص جميعاً على ألا ندع بريندا تخلط بين الايزيرين والأنسولين.. أليس كذلك؟ وصمتت صوفيا لحظة ثم قالت:

– لقد سمعنا جميعاً هذا الحديث.. ولذلك قلت لك أن كل إنسان فى هذا البيت يعرف كل شىء عن الايزيرين.

فلزمت الصمت، ولم أجد ما أجيب به..

كنت أرجو أن أجد فى البيت شخصين أو ثلاثة أشخاص على الأكثر لهم من الدراية بخصائص الايزيرين ما يساعدهم على استخدامه فى ارتكاب جريمة قتل. ولكن وضح لى الآن أن العجوز قدم بنفسه للجميع كافة المعلومات التى تساعدهم على الخلاص منه.

ويبدو أن صوفيا أدركت ما يدور بخلدى.. لأنها ما لبثت أن هتفت:

- هذا مخيف.. أليس كذلك؟

- لقد خطر لى خاطر.

- ما هو؟

- إن بريندا لم ترتكب الجريمة، لسبب بسيط هى أنها لا تستطيع الالتجاء إلى وسيلة عرفتموها معها من حديث العجوز ولابد أنكم ستذكرونها.

- من يدرى؟ ثم لا تنس أنها غبية وحمقاء.

- لا أظن ذلك.. إننى كلما فكرت فى الأمر ازددت اقتناعاً ببراءتها.

- إنك فى قرارة نفسك تتمنى ألا تكون هى القاتلة.. أليس كذلك؟

فصمت، لم يكن فى استطاعتى أن أقول لها كلا.. إننى أتمنى أن تكون هى القاتلة..

لماذا لم يكن ذلك فى استطاعتى؟

هل لأنها وحيدة والجميع ضدها؟

ربما..

هل لأن الإنسان مطبوع على التصدى لنصرة الضعيف الأعزل؟

ذلك محتمل..

ولكن الشىء المؤكد هو أننى شعرت بارتياح شديد حين رأيت نانى تخرج من الغرفة الخلفية وتقبل نحونا..

لقد جاءت فى الوقت المناسب، ولابد أنها لاحظت فتورنا لأنها قالت: دعكما من الحديث عن الجريمة والمجرمين.. فلذلك من شأن رجال البوليس.

فصاحت صوفيا:

- ألا تدركين يا نانى أن فى البيت قاتلاً أثيماً؟

- هراء.. إنكم تتركون جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة وكأنكم تدعون اللصوص والقتلة إلى التفضل بالدخول.

- نحن لا نتحدث عن اللصوص يا نانى.. إن شيئًا لم يسرق من البيت.

- لم أقل أن شيئاً سرق.. إنما أردت أن أقول، أنه من المحتمل أن يكون القاتل شخصاً غريباً دخل من أحد الأبواب المفتوحة.

فنظرت إلى صوفيا ونظرت إلى وابتسمنا.

قالت أخيراً:

- هلم بنا إلى قاعة الاستقبال يا تشارلس. هناك شبه مؤتمر عائلى كان مقرراً أن يعقد فى المساء.. ولكنهم بكروا بعقده.

- لا أريد أن أبدو دخيلاً أو متطفلاً يا صوفيا.

- ما دمت ستتزوج من الأسرة فيجب أن تعرف أفرادها على حقيقتهم.

- وما الغرض من هذا المؤتمر؟

- بحث موقف روجر. أظن أنك تعرف مركز شركته.. ولكن كان من الجنون أن تتوهم أنه قتل أباه. لقد كان يحبه حب عبادة.

- الواقع أننى لم أشك فيه. كانت كل شكوكى تحوم حول كليمنسى.

- وهذا أيضاً خطأ.. فإن كليمنسى لا يهمها أن يفقد روجر كل ثروته.. إنها امرأة عجيبة لا تشعر بالسعادة إلا عندما ينقصها كل شىء.. تعال.

وما أن دخلنا قاعة الاستقبال حتى ساد الصمت فجأة وتحولت إلينا جميع الأنظار.

كانوا جميعاً هناك. فيليب يتربع على مقعد أحمر كبير بين نافذتين أشبه بقاض يهم بإصدار حكمه، ووجهه الوسيم جامد كأنه قد من صخر، وروجر يجلس بجوار المدفأة وشعره المشعث ورباط عنقه ينمان عن مدى إهماله لمظهره، وكليمنسى وراء زوجها وجسدها النحيل يبدو أشد نحولاً فى مقعدها الكبير، وعيناها تنظران بعيداً وكأنها لا تعبأ بشىء مما يدور حولها.. أديث منزوية فى مقعد الجد العجوز وهى مرفوعة الرأس مطبقة الشفتين وأصابعها تعمل بإبرة التريكو بنشاط عجيب.

أما ماجدا وأوستاش فكانا يجلسان جنباً إلى جنب على إحدى الأرائك، وكأنهما لوحة بريشة فنان كبير، هى بثوبها الأنيق الفضفاض وعنقها الجميل أشبه بإحدى الأميرات أو الدوقات، وهو بوجهه الفتى الوسيم الذى تبدو عليه دلائل السأم المقرون بالاستسلام المهذب..

ورآنى فيليب وقطب ما بين حاجبيه وقال:

- صوفيا.. هذا اجتماع عائلى ذو طابع خاص لبحث شئون الأسرة.

فهممت بالاعتذار والانسحاب، ولكن صوفيا أجابت بثبات:

– أنا وتشارلس نعتزم الزواج ويهمنى أن يشترك فى هذا الاجتماع.

فصاح روجر فى حماس:

– ولم لا؟ قلت لك مراراً وتكراراً يا فيليب أن الأمر لم يعد يتطلب الكتمان.. وغداً أو بعد غد سيعلم به الناس جميعاً.

وترك مكانه واقترب منى وقال وهو يضع يده على كتفى:

– ثم أنك سمعت ما دار بينى وبين أبيك أيها الشاب.. ولابد أنك قد عرفت الآن بكل شىء.

ومع ذلك فقد أحسست بأن وجودى غير مرغوب فيه، وبأننى يجب أن أنسحب، ولكن صوفيا ضغطت يدى.. وأصرت على بقائى..

ووصلت مس دى هافيلاند الحديث الذى انقطع بدخولنا فقالت:

– الرأى عندى أننا يجب أن نحترم إرادة أرستيد ونعمل على إنقاذ الشركة.. وفيما يختص بى فأننى أضع كل ما أملك تحت تصرف روجر.

فصاح روجر فى غضب:

– كلا يا خالتاه.. كلا..

وقال فيليب:

– وأنا أود أن أفعل المثل.. ولكن ثمة اعتبارات.

فقاطعه روجر قائلاً:

– ألا تريد أن تفهم يا عزيزى فيليب أننى لا أريد ولن أقبل درهما

من أحد؟

- نعم.. إنه لن يقبل.

فقالت ماجدا:

- إنه على كل حال سوف يحصل على نصيبه فى الميراث.

فقال أوستاش:

- سيكون قد فات الأوان لإنقاذ الشركة..

فصاح روجر:

- قلت أن الشركة لا تهمنى.. فلندع الأمور تجرى فى طريقها الطبيعى.

فقال فيليب:

- وسمعة الأسرة؟ وكرامة الأب.. وكرامتنا!!

- إن الشركة لا تحمل اسم الأسرة.. إنها شركتى وتحمل اسمى.

وهنا نهضت أديث دى هافيلاند وقالت بحزم:

- أظن أن المناقشة طالت أكثر مما ينبغى.

فنهض فيليب وماجدا، وغادر أوستاش القاعة وهو يعرج، وتأبط روجر ساعد فيليب وهو يقول:

- لابد أنك جننت يا فيليب حتى تظن أننى سأطلب مساعدتك.

وخرج الأخوان معا وتبعتهما ماجدا وصوفيا التى قالت أنها ستذهب لتعد لى إحدى الغرف، ونظرت أديث هافيلاند نحوى حتى ظننت أنها تريد أن تتحدث إلى، ولكن يبدو أنها عدلت، لأنها انصرفت

على الأثر دون أن تنظر يمنة أو يسرة..

أما كليمنسى فإنها وقفت أمام النافذة وراحت تنظر إلى الحديقة.. فاقتربت منها.. فتحولت إلى وقالت:

- حمداً لله.. لقد انتهى الاجتماع.

وصمتت قليلاً ثم استطردت قائلة:

- هذا الاجتماع العائلى.. هو الفصل الثانى من المسرحية.. وماجدا هى صاحبة الفكرة.. ولكنه أسفر عن لا شىء.. لأن الموضوع كان منتهياً تماماً.

كان صوتها ينم عن الارتياح.. لا الحزن.. فدهشت، ولاحظت هى دهشتى وقالت:

- ألم تفهم؟ لقد ظفرنا أخيراً بحريتنا بعد سنوات طويلة قضاها روجر فى بؤس وشقاء.. إنه لم يخلق لإدارة الأعمال.. فهو يحب الجياد والأشجار والحقول.. وكان- كسائر أفراد الأسرة- يحب أباه حبّا جمّا.. وهذا هو سر شقاء هذا البيت.

لم يكن الأب طاغية، ولم يكن يفرض إرادته على أحد.. كان يحب أولاده ويبذل قصارى جهده ليكفل لهم الغنى والاستقلال. وكان الأولاد يحبونه حب عبادة..

- وهل فى ذلك خطأ؟

- نعم.. إلى حد ما.. عندما يكبر أولادك فإنه يحسن بك أن تبتعد عنهم.. وتختفى من حياتهم.. وترغمهم على نسيانك.. لا أن تدع ما

بينك وبينهم من حب يطغى على شخصيتهم ويحكم تصرفاتهم.

كانت الشركة المتحدة للمواد الغذائية موضع فخر أرستيد ليونيدس.. وكانت تمثل بالنسبة إليه قمة النجاح. فنزل عنها لروجر. أكبر أولاده. وحاول روجر أن يكون جديراً بالثقة التى وضعها فيه أبوه. ولكنه كان يشعر بعجزه وقصوره.. وذلك ما جلب له التعاسة طوال السنين الماضية.

كان يرى الشركة تتدهور عاماً بعد عام، فيبذل لها مزيداً من الجهد، فلا تزيدها جهوده إلا تدهوراً. ولما أصبح إفلاسها محققاً.. تنفس الصعداء.. وأحس بالارتياح والخلاص.. وبدأ يفكر فى الحياة الجديدة التى سنحياها

– وإلى أين كان فى نيتكما الرحيل؟

– إلى «باربادوس». لقد مات أحد أقاربى هناك وترك لى قطعة من الأرض.. صحيح أنها قطعة صغيرة ولكنها أكثر مما سوف نحتاج إليه.. سنكد وسنكدح ولكننا سنكون سعيدين.

وتنهدت وأردفت:

– إن ما يحزن روجر هو اعتقاده بأننى سوف أضيق بالفقر. وهو اعتقاد خاطئ.. نابع بغير شك من أنه نشأ فى أسرة تضع المال فى المكان الأول من اهتماماتها، أما أنا فقد عشت مع زوجى الأول فى فقر مدقع. وقد اعتبر روجر ذلك منتهى الشجاعة من جانبى، ولم يدرك أننى كنت سعيدة كل السعادة.. بل كنت أكثر سعادة منى الآن.. رغم أننى لم أحب زوجى الأول قط كما أحببت روجر..

وأغمضت عينيها ثم فتحتهما ونظرت إلى وقالت:

– وهذا يعنى أننى لست المرأة التى ترتكب جـريمـة قـتل من أجل المال. لأننى أحب المال..

ولم يكن يخامرنى شك فى صدقها.. كانت من الأشخاص القلائل فى هذه الدنيا، الذين لا يحفلون بالمال أو بما يوفره المال لأصحابه من متع وسلطان..

قلت:

– إننى مقتنع تماماً بأنه لا ضلع لك أو لروجر فى الجريمة، ولا مصلحة لكما فى ارتكابها. ولكنى أعتقد أنك من الذكاء بحيث لا يمكن لديك فكرة عمن ارتكبها..

فـرمـقـتنى بنظرة طويلة غـريبـة وقـالت بصـوت باهت خلو من الحماسة:

– إن التكهن لعبة غير علمية، كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن بريندا ولورانس هما فى مقدمة المشتبه فيهم..

– هل ترتابين فيهما؟

فهزت كتفيها، وأرهفت أذنيها لحظة ثم خرجت مسرعة فى اللحظة التى دخلت فيها أديث دى هافيلاند وهى تقول:

– أريد أن أتحدث إليك..

فدنوت منها.

قالت:

– أرجو ألا يكون الاجتماع العائلى قد ترك فى نفسك انطباعاً سيئاً .. أعنى عن فيليب .. أنه يبدو جامد العاطفة شديد التحفظ ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك ..

كان روجر هو الأخ الأكبر، وكان أثيراً عند أبيه بعض الشىء لهذا الاعتبار، وأظن أن فيليب أحس بذلك فانطوى على نفسه فى الكتب التى تتحدث عن الماضى وتنأى به عن حاضره وعن حياته اليومية.

وصمتت لحظة ثم قالت:

– ويخيل إلى أنه كان دائماً يغار من روجر دون أن يشعر .. ولهذا لم يحزن كثيراً لإخفاقه وفشله فى إدارة الشركة .. ولم يسارع إلى نجدته كما كان ينبغى عليه أن يفعل ..



قرار الإبعاد

قالت صوفيا: ها هى غرفتك..

كانت غرفة فسيحة، كسائر غرف البيت ذى القباب الثلاث.. وأثاثها قليل، ولكنه ثمين.. وليس بها لوحات أو تحف..

وقفت أمام النافذة، ونظرت إلى الحديقة.. فبدت لى فى الغسق موحشة حزينة. وأشجارها التى تجردت من نصف أوراقها تتمايل مع ريح الخريف كأنها أشباح تترنح..

وفجأة، فتح باب الغرفة ودخلت ماجدا وهى تقول:

- لماذا لا تضيئان النور أيها العزيزان؟

لقد هبط الظلام..

وأضاءت النور واستلقت على أحد المقاعد واستطردت قائلة:

- هل شهدتما مسرحيتنا الصغيرة؟ كانت أديث رائعة حين تبرعت بنصيبها فى الميراث لإنقاذ الشركة.. وكانت مخلصة أيضاً.. كانت حركة غبية خشيت أن يتأثر بها فيليب فيفعل المثل.

الواقع أن أديث لا تضن بأية تضحية من أجل الأسرة، وأن حب عانس عجوز لأولاد أختها على هذا النحو لأمر يدعو إلى التأثر.. كم

أود أن ألعب دوراً كهذا.. دور خالة عجوز يفيض قلبها حبّا وحناناً..

فقلت:

- لابد أنها عاشت أياماً تعيسة عقب موت أختها.. خاصة وأنها كانت تكره زوج أختها ولا تطيقه.

- من قال لك هذا الكلام؟ إنها كانت مدلهة بحبه..

فصاحت صوفيا:

- أماه!!

- لا تحاولى معارضتى يا صوفيا.. أتظنين أن الحب وقف فقط على الشباب الذين يتناجون فى ضوء القمر؟

فقلت:

- ولكن أديث هى التى قالت لى بنفسها أنها كانت تمقته.

- ربما كان ذلك فى البداية. ولكنها أحبته فيما بعد ولم ترض عن زواجه الثانى.

فقالت صوفيا:

- وأنت وأبى لم ترضيا أيضاً عن زواجه الثانى..

- طبعاً. كان زواجاً غير متكافىء ولكن أديث كانت أشدنا غضباً واستياء.. ليتك فقط رأيت نظراتها إلى بريندا!!

- كفى يا أماه!!

فنظرت ماجدا إلى ابنتها فى ضراعة نظرة طفل يرجو الصفح

والمغفرة. وقالت دون أن تحفل بأنها قد انتقلت إلى موضوع آخر مختلف تماماً:

– إننى قررت أن أرسل جوزيفين للإقامة فى إحدى المدارس.. لقد آن لى أن أفعل ذلك.

– جوزيفين!!

– نعم. سأرسلها إلى سويسرا. وسأشرع غداً فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك. لم يعد من مصلحتها أن تبقى هنا. حيث لا هم لها إلا التفكير فى الجريمة والمجرمين ثم أنها بحاجة إلى زميلات فى مثل سنها.. إن المدرسة الداخلية هى أفضل مكان لها.. ذلك كان رأيى دائماً.

– ولكنه لم يكن رأى الجد.

– إن العجائز تطغى عليهم الأنانية أحياناً.. وقد كان العجوز العزيز يريدنا جميعاً تحت بصره. بينما المكان الطبيعى للطفل هو أن يكون بين أطفال فى مثل سنه. ثم أن سويسرا بلاد جميلة.. ستتعم فيها جوزيفين بالهواء النقى ورياضة الشتاء.. والطعام الجيد. ولن تجد فيها مجالاً للقيام بدور البوليس السرى.

رنت هذه العبارة فى أذنى، ولم أتمالك من أن أسأل نفسى: ألهذا فقد قررت الأم فجأة أن ترسل ابنتها إلى سويسرا؟

إن جوزيفين تعرف أشياء كثيرة.. حدثت قبل الجريمة وبعدها.. ترى هل لذلك صلة بقرار إبعادها إلى سويسرا؟

مسار التحقيق

فى صباح اليوم التالى تناولت طعام الإفطار وصعدت الطابق الأول حيث توجد قاعة الدراسة التى يلتقى فيها أوستاش وأخته بأستاذهما لورانس براون كل يوم..

كان الدهليز الذى سرت فيه خالياً تماماً، ولم أسمع فيه حركة أو صوتاً.. ووجدت نفسى أمام قاعة الحمام التى قضى فيها رجال البوليس وقتاً طويلاً للبحث عن آثار ترشدهم إلى اليد التى سكبت مادة الأيزيرين فى قنينة الأنسولين، ولم أقو على مقاومة الفضول الذى استولى على فدلفت إلى الحمام وراعنى ما رأيت فيه.

كان حافلاً بأحداث ما تفتق عنه الذهن البشرى من وسائل الترف وكان كل ما يعنينى فيه هو صندوق الأدوية والعقاقير الطبية ففتحته فإذا هو صيدلية صغيرة حافلة بمختلف الأدوية وبينها عدد كبير من قنانى الأنسولين بعضها ملىء وبعضها فارغ.. ومحتوياته مرتبة ومنظمة بحيث يسهل تناول أى دواء للعلاج.. أو القتل..

لم يرنى أحد حين دخلت الحمام، وكان بوسعى أن أسكب محتويات

أية قنينة فى قنينة أخرى وأنصرف دون أن يشعر بى أحد..

لم أقف من هذه الزيارة على جديد، ولكنها أقنعتنى بصعوبة مهمة رجال البوليس فى إماطة اللثام عن قاتل أرستيد ليونيدس..

وواصلت السير فى الدهليز المقفر حتى انتهيت إلى باب قاعة الدرس كما وصفتها لى صوفيا.

تريثت أمام الباب وأرهفت أذنى وسمعت صوت لورانس وهو يلقى على تلميذته درساً فى التاريخ.. واكتشفت بعد بضع دقائق أنه مدرس ممتاز، ولم أدهش لذلك فقد كان أرستيد ليونيد رجلاً حصيفاً يعرف كيف يختار الرجال..

كان لورانس من أولئك الأساتذة الذين يعرفون كيف ينشطون خيال تلاميذهم ويثيرون اهتمامهم.

وبعد أن فرغ من حديثه عن إحدى حقبات الثورة الفرنسية وأبطالها شرع فى إلقاء الأسئلة على تلميذيه، فكانت إجابات جوزيفين مضطربة معقدة.. على عكس أخيها أوستاش الذى كان يجيب بوعى وذكاء.

ثم سمعت حركة مقاعد داخل القاعة، فهممت بالابتعاد، ولكن الباب فتح بسرعة وخرجت جوزيفين وتبعها أوستاش فحيتنى الأولى ومضت مسرعة بينما توقف أوستاش وبدأ كأنه دهش لوجودى فى ذلك المكان وسألنى بأدب عما إذا كنت أريد شيئاً فأجبته ببعض الارتباك بأننى كنت أود أن أتفقد قاعة الدراسة..

قال: ظننت أنك تعرفها.. إنها غرفة عادية ليس فيها ما يثير الاهتمام.. وقد كنت ألعب فيها وأنا طفل ومازال بها بعض اللعب.

وفتح الباب، ورأيت لورانس واقفاً أمام منضدة فما أبصرنى حتى احمر وجهه وقال كلمة على سبيل التحية وغادر الغرفة مسرعاً..

فقال أوستاش وهو يبتسم..

– إنك أخفته.. إن أبسط شىء يرعبه.

– ولكنه أستاذ ممتاز..

– لا أستطيع أن أقول العكس..

– هل تتلقى نفس الدروس مثل جوزيفين.

– كلا طبعاً.. أنها لا تتعلم اللغة اللاتينية ولا الحساب.

– ولكن يخيل إلى إنها أذكى من سنها..

– أتظن ذلك؟ أننى أرى العكس، إنها غبية.. وقد أطاحت الروايات البوليسية بصوابها.. فهى تتصت على الأبواب وتكتب ملاحظات فى دفتر لها أسود صغير وتزعم أنها اكتشفت أشياء كثيرة.. ولكنها دعية حمقاء وقد قلت لها إن أمى ستحسن صنعاً حين ترسلها إلى سويسرا.

– هل كنت تحب جدك يا أوستاش؟

– كان رجلاً أنانيّا وغير اجتماعى.. وقد قال لورانس أن أمثاله يجب أن يختفوا..

– وهذا ما فعله.

– وخير ما فعل.. أية متعة فى الحياة يجدها من كان فى مثل سنه؟

وفى هذه اللحظة عـاد لورانس وراح يرتب بعض الكتب على المنضدة، ولاحظت أنه ينظر نحوى خلسة من ركن عينه وأخيراً نظر

إلى ساعته وقال:

- أوستاش.. هل لك أن تعود فى الساعة الحادية عشرة تماماً؟

- حسناً يا سيدى.

وانصرف الصبى وهو يصفر بشفتيه..

واستمر لورانس فى ترتيب الكتب، وهو يبلل شفتيه بلسانه بين الفينة والفينة ولم يكن لدى شك فى أنه إنما قد عاد خصيصاً للتحدث إلى.

ويبدو أنه قرر آخر الأمر أن يتكلم.

قال: إلى أين وصلوا؟

- من؟

- رجال البوليس..

- الحق أنهم لا يطلعوننى على نتائج تحرياتهم.

- كنت أظن أن أباك من كبار رجال البوليس.

- هذا صحيح. ولكنه لا يكشف لى ما ينبغى كتمانه من أسرار.

- إذن أنت لا تعلم ما إذا..

ولم يوفق إلى الكلمة المناسبة.. وقال بعد تردد قصير:

- هل قرروا القبض على أحد؟

- لا أعلم على وجه التحديد.

- إنك لا تستطيع أن تفهم معنى القلق وتوتر الأعصاب، فهم يجيئون ويذهبون ويلقون أسئلة لا صلة لها بالموضوع.

وصمت مرة أخرى.. وطال صمته.. إلى أن قال:

– إنك كنت موجوداً يوم أدلى المفتش بتلك الملاحظة الفظيعة عنى أنا ومسز ليونيدس.. أليس كذلك؟ ماذا كان بوسعى أن أقول؟ وكيف السبيل إلى انتزاع الأفكار القذرة من أذهان الناس؟ وماذا كان فى استطاعتى أن أفعل لأثبت خطأهم؟ وكل ذلك لأنها كانت أصغر سنّاً من زوجها!! قلبى يحدثنى بأن فى الأمر مؤامرة..

– مؤامرة؟ هذا شىء جديد أسمعه لأول مرة..

– إننى لم أظفر قط بعطف آل ليونيدس.. كانوا دائماً ينظرون إلى من عل.. وكنت أشعر بأنهم يحتقروننى.. لا لشىء إلا لأنهم أغنياء.. وأنا لا شىء.. مجرد مدرس حقير.. لقد دبر ليونيدس الأمر بحيث تقع الشبهة على أنه أراد دمارى..

وهز كتفيه وعاد إلى كتبه يرتبها بأصابع مرتجفة ورأيت من الأفضل أن أنسحب، فغادرت الغرفة، وسرت فى الدهليز الذى سلكته عند قدومى وفجأة، فتح باب إلى يسارى. ورأيت جوزيفين تظهر بغتة أمامى.

كان الغبار يغطى وجهها ويديها، ونسيج عنكبوت يتدلى من أذنها اليمنى.

سألتها: من أين جئت؟

فنظرت خلال الباب الذى قدمت منه.. وأومأت إلى غرفة كان بها فيما مضى خزان للماء..

قالت: كنت فى غرفة الخزان..

– وماذا كنت تفعلين هناك؟

– كنت أقوم ببعض الأعمال البوليسية.

ونظرت إلى يديها وقالت: يجب أن أغتسل.

ومضت إلى حمام قريب.. وما أن وصلت إلى بابه حتى استدارت وقالت تحدثنى: يخيل إلى أن جريمة القتل التالية لن تتأخر طويلاً..

- أى جريمة قتل ثانية؟

- فى كل قضية بوليسية توجد دائماً جريمة ثانية يكون الضحية فيها شخصاً يتعين إسكاته لأنه يعرف أشياء لا يجب أن تقال..

- إنك تسرفين من قراءة القصص البوليسية يا جوزيفين ولكن الحياة شىء آخر يختلف تماماً عما فى القصص... وإذا كان فى هذا البيت من يعرف أسراراً.. فإنه لن يبوح بها..

فقالت وهى تهم بدخول الحمام: يحدث أحياناً أن يكون الشخص المطلوب إسكاته لا يعلم بأنه يعرف أسراراً تهم الآخرين..

* * *

وإننى أفكر فيما قالته هذه الصغيرة الخبيثة.. إذا بيريندا تخرج من قاعة الاستقبال وتقبل نحوى..

قالت وهى تضع يدها على كتفى بلطف وتنظر فى عينى:

- هل من جديد؟

كان نفس السؤال الذى ألقاه على لورانس من قبل ولكن بأسلوب آخر.

هززت رأسى سلباً، فتنهدت وقالت:

- ماذا سيحدث فى التحقيق الذى سيجرى غداً؟

- لا شىء.. فاطمئنى.. سيطلب البوليس إرجاء التحقيق حتى تتهيأ لهم أدلة جديدة.. ولكنى أتوقع أن تتحرك الصحف، إنها اقتصرت حتى الآن على نشر نبأ الوفاة.. ولكن إرجاء التحقيق سيطلق الصحفيين فى

أعقاب أفراد الأسرة..

- هذا مخيف..

- لو كنت مكانك يا بريندا لامتنعت عن مقابلة الصحفيين أو التحدث إليهم لقد آن لك أن تجدى من ينصحك ويرشدك إلى ما يجب عمله.. إنك بحاجة إلى رجل قانون يظهرك على الإجراءات ويرشدك إلى ما يجب أن تقوليه أو تفعليه..

إنك تقفين وحدك يا بريندا.. فهل تعلمين ذلك؟

فضغطت على كتفى وقالت:

- نعم يا تشارلس.. إننى أعلم.. فشكراً لك.

* * *

وهبطت درج السلم وأنا أشعر بالرضى عن نفسى ورأيت صوفيا تقف بالباب..

قالت حالما رأتنى:

- لقد تحدثوا تليفونيّا من لندن يا تشارلس.. إن أباك يرغب فى مقابلتك..

- فى اسكتلند يارد؟

- نعم..

- ترى ماذا يريد منى؟

الـوصية

كان أبى يجلس أمام مكتبه، وتافرنر يطل من النافذة، وجيتسكيل يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، والجو مفعم بالتوتر.

قال المحامى: من كان يتصور أنه لا يثق بى إلى هذا الحد؟

وقال أبى حالما رآنى:

– أهذا أنت يا تشارلس؟ إن لدينا أنباء جديدة..

فنظرت إلى تافرنر ورأيته يبتسم..

قال أبى:

– سأوضح لك الموقف بإيجاز، فقد تلقى جيتسكيل صباح اليوم رسالة غريبة من رجل يدعى أجروبولو وهو صاحب مطعم معروف باسم مطعم «الفوس»..

ومستر أجروبولو يونانى الأصل كما يدل على ذلك اسمه ويبدو أن أرستيد ليونيدس أسدى إليه معروفاً عظيماً فى وقت ما، جعله يشعر بأنه مدين له مدى الحياة.. وكان ليونيدس من ناحيته يثق فيه ثقة

عظيمة.

وقد قال أجروبولو فى رسالته.. أن ليونيدس أودع لديه منذ نحو عام مظروفاً مغلقاً وطلب إليه أن يرسله إلى مستر جيتسكيل عقب وفاته، وفى حالة وفاة أجروبولو أولاً، يقوم ابنه بهذه المهمة..

واستطرد أجروبولو فى رسالته قائلاً أنه كان مريضاً بالتهاب رئوى فلم يعلم بوفاة أرستيد ليونيدس إلا منذ يومين.. ولذلك فإنه بادر إلى إرسال المظروف المختوم إلى مستر جيتسكيل..

وقد قرأ مستر جيتسكيل رسالة أجروبولو.. وفض الغلاف المرفق بها، وما كاد يرى محتويات الغلاف المختوم.. وهى عبارة عن رسالة من ليونيدس مرفقاً بها وصيته.. وهى وصية قانونية: تحمل توقيع ليونيدس واثنين من الشهود.. حتى وجد من واجبه أن يتصل بنا وهنا صاح جيتسكيل:

- إنها غير الوصية التى كتبتها نزولاً على رغبة ليونيدس نفسه. وقد كتبها بخط يده ووضعها فى الغلاف وختمه.. وذلك أسوأ ما يفعله رجل أعمال..

فقال تافوند ليرفه عنه:

- لا تنس يا مستر جيتسكيل أن الرجل كان قد بلغ من السن عتيا، وساء تقديره للأمور..

واستطرد أبى قائلاً:

- وقد اتصل بنا مستر جيتسكيل وأنبأنا بمضمون الوصية فطلبت إليه الحضور لمقابلتنا..

فسألت: وهل هناك اختلاف بين الوصيتين؟

فقال جيتسكيل: اختلاف كبير..

وصمت لحظة ثم قال:

- أعتقد أنك على صلة وثيقة بالآنسة.. بالآنسة صوفيا؟

- إننى أرجو الاقتران بها، ولكنها تأبى الحديث فى موضوع الزواج فى الوقت الحاضر.

- إذن فاعلم أن مستر ليونيدس قد أوصى لزوجته فى الوصية الجديدة بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه. وأوصى بباقى ثروته لحفيدته صوفيا ليونيدس.

ألجمتنى الدهشة بضع ثوان، وهتفت أخيراً:

- أوصى بكل ثروته لصوفيا.. هذا عجيب!! وهل أوضح أسباب هذا القرار؟

- قال فى رسالته التى أرفقها بالوصية أن صوفيا هى أقدر ذراريه على احتمال مسئوليات الأسرة التى كانت طوال حياتها بحاجة إلى شخصية قوية تسهر عليها وترعى مصالحها. وتناول بالتحليل شخصيات الآخرين فقال إن روجر شديد الاندفاع ولا يمكن الركون إليه فى الحكم على الأمور وأن فيليب يفتقر إلى الثقة بالنفس.. بينما أوستاش لا يزال حدثاً ومن السهل التأثير عليه.. أما صوفيا فإنها ذكية ورزينة وشجاعة، ولها كل الصفات التى تكفل إسعاد الأسرة وإسعاد أديث دى هافيلاند التى لا يسعه إلا أن يذكر بالشكر وعرفان الجميل ما أبدته طوال حياتها من إخلاص لأفراد الأسرة.

فقلت بإعجاب:

- حقًا لقد كان رجلاً بعيد النظر صادق الفراسة..

فقال جيتسكيل:

- إننى أقر كل كلمة جاءت فى رسالته.. ولكنى أعيب عليه عدم ثقته بى بعد خدمة ثلاثة وأربعين عاماً .

فقال أبى:

- هذا صحيح.. ولكن يبدو أنه كان رجلاً معقداً يطيب له حسم الأمر بطريقة غير مألوفة.

وفى هذه اللحظة دق جرس التليفون فتناول أبى السماعة وأصغى ثم قال:

- هذه مكالمة لك يا تشارلس.. من صديقتك..

فتناولت السماعة وهتفت:

- صوفيا؟

- أهذا أنت يا تشارلس؟ إننى أحدثك الآن بشأن جوزيفين.

كان صوتها متهدجاً.. فصحت:

- ماذا بها؟

- أصيبت بضربة فى رأسها ربما تقضى عليها.

الجريمة المرتقبة

بعد بضع دقائق، كنت والمفتش تافرنر في سيارة تنهب بنا الأرض في الطريق إلى ضاحية «سوينلى دين»..

وتذكرت وأنا أستعرض أحداث الأيام الأخيرة ما قالته جوزيفين وهى تغادر قاعة خزان الماء عن الجريمة الثانية المرتقبة.

لا شك أن الطفلة المسكينة لم تتوقع أن تكون هى ضحية تلك الجريمة الثانية..

وكانت صوفيا تنتظرنا بباب البيت.. فقالت لنا أن جوزيفين قد نقلت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى وأن الدكتور «جراى» سيفحصها بالأشعة ويخطرهم بنتيجة الفحص، فسألها تافرنر:

– ولكن كيف حدث ذلك؟

فاقتادتنا إلى غرفة مهجورة خلف البيت وقالت:

– هذه الغرفة تستخدم كمخزن للأدوات المهملة كالخراطيم والفؤوس وغيرها مما يستعمل فى الحديقة.. وقد اعتادت جوزيفين التردد عليها بين وقت وآخر لتتأرجح على بابها الخشبى.

كانت غرفة صغيرة مظلمة مليئة بالمقاعد الخشبية والخراطيم المستهلكة وقطع الأثاث التالفة. فأشارت صوفيا إلى تمثال صغير من الرخام ملقى على الأرض بجوار الباب وقالت:

– لابد أن بعضهم وضع هذا التمثال على الحافة العليا للباب فلما أرادت جوزيفين التأرجح على الباب كالعادة سقط التمثال على رأسها.

فقال تافرنر:

– إنها حيلة متناهية فى البساطة..

وحرك الباب بيده ثم نظر إلى التمثال وسأل:

– هل مسه أحد؟

فأجابت صوفيا:

– كلا.. لم أسمح لأحد بأن يمسه..

– أحسنت صنعاً.. ومن الذى عثر على الفتاة؟

– أنا.. لقد انتظرناها ساعة الغداء فلم تحضر.. فشرعنا فى البحث عنها وتذكرت «نانى» أنها رأتها تخرج إلى الحديقة وتسير فى هذا الاتجاه.. فقالت لى أنها تراهن على أنها ذهبت لتتأرجح على الباب. وخيل إلى أنها على صواب فجئت إلى هنا للبحث عنها.

– هل اعتادت التأرجح على هذا الباب؟

– نعم.. وأعتقد أن الجميع يعلمون ذلك.

– ألا يستطيع من فى البيت أن يرى ما يحدث هنا؟

- كلا..

- إذن فقد كان من السهل على أى إنسان أن يتسلل إلى هذه الغرفة ويضع هذا الفخ.. ولكن نجاح تدبيره لم يكن مؤكداً..

قال ذلك وحرك الباب برفق واستطرد قائلاً:

- كانت مسألة حظ.. وكان من الممكن جدّا ن يسقط التمثال فلا يصيبها.. بل إن احتمالات الفشل تفوق كثيراً احتمالات النجاح.. كل ما هنالك أن جوزيفين كانت سيئة الطالع فسقط التمثال على رأسها.

وانحنى.. ونظر إلى عدة ثقوب فى الأرض وقال:

- يبدو أن الفاعل قام بعدة تجارب قبل أن يتمكن من موازنة التمثال فوق الحافة العليا للباب.. ألم تسمعوا شيئاً وأنتم بالبيت؟

فأجابت صوفيا:

- كلا.. وأنا شخصيا لم أشك فى الأمر إلى أن رأيتها ممدده على الأرض والدم يسيل من جرح عميق فى رأسها..

فأشار تافرنر إلى شملة من الصوف صارخة الألوان ملقاة على الأرض وسأل:

- أهذه شملتها؟

- نعم..

فتناول تافرنر الشملة وأمسك بها التمثال وهو يقول:

- قد تكون عليه بصمات أصابع.. ولكنى أشك فى ذلك.. ماذا تفعل يا تشارلس؟

كنت أنظر إلى مقعد خشبى رأيت على قاعدته بعض قطع من الطين.. فقال تافرنر:

– هذا عجيب!! يبدو أن بعضهم وقف فوق هذا المقعد وحذاؤه ملوث بالوحل.. ترى لماذا؟

ثم التفت إلى صوفيا وسأل:

– متى عثر على جوزيفين فى هذا المكان؟

– حوالى الساعة الواحدة وخمس دقائق..

– وكم كانت الساعة حين رأتها «نانى» تخرج إلى الحديقة؟

– قبل ذلك بنحو عشرين دقيقة..

– إذن فالحادث وقع خلال فترة محدودة لا تتجاوز ٢٥ دقيقة..

* * *

وعدنا إلى البيت، ورافقت صوفيا إلى قاعة المكتبة، وهناك كان فيليب فى مقعده المألوف وهو شاحب الوجه شارد الذهن.. بينما جلست ماجدا على الأرض وأسندت رأسها إلى ركبة زوجها وراحت تذرف الدموع فى هدوء..

وسألت صوفيا أباها عما إذا كان المستشفى قد اتصل تليفونيّاو فهز فيليب رأسه سلباً، وقالت ماجدا:

– لماذا لم يدعونى أذهب مع ابنتى الصغيرة المسكينة..؟

ـ أنا أعلم أنها ستموت.

فتوسل إليها فيليب أن تصمت..

ورأيت من اللياقة أن أنسحب، فخرجت فى هدوء وانطلقت للبحث عن «نانى».. وجدتها فى المطبخ تبكى..

قالت:

- إن الأرواح الشريرة تملأ هذا البيت يا مستر تشارلس لقد قتل السيد العجوز أولاً.. وها هى الصغيرة المسكينة على شفا الموت..

وخطر لى خاطر فسألتها:

- هل تعلمين أين كانت تخفى الدفتر الأسود الصغير الذى كانت تسجل فيه خواطرها وأفكارها؟

- كلا يا سيدى.. ولكنى أعلم أنها كانت تحرص عليه وتحيطه بسرية تامة.

- هل كان معها عندما عثرتم عليها بعد الحادث؟

- كلا يا سيدى.

ترى هل أخذ بعضهم هذا الدفتر. أو أنه لا يزال مخبأ فى غرفتها؟

وخطر لى أن أبحث عنه، ولكنى لم أكن أعرف موقع غرفة جوزيفين.

ووقفت فى الدهليز حائراً.. وإذا بى أسمع صوت تافرنر وهو يقول:

- تعال يا تشارلس، إننى فى غرفة جوزيفين..

فذهبت إلى مصدر الصوت، وجمدت فى مكانى على عتبة الباب..

كانت الغرفة أشبه بمكان مر به إعصار.

كل شيء فيها نزع من مكانه.. حشية الفراش مزقت إربا، الأدراج خلعت من الدواليب وبعثرت محتوياتها.. اللوحات ألقيت على الأرض وحطمت إطاراتها.. المقاعد مقلوبة.. الكتب والأوراق مبعثرة.

لم أصدق ما رأته عيناى وهتفت:

– يا إلهى!! ما معنى هذا؟

– ما رأيك؟

– رأيى أن بعضهم كان يبحث هنا عن شيء.

– ذلك ما أعتقده.

– ولكن لا يمكن أن يدخل إنســان ويفـعل كل هذا دون أن يراه أو يسمعه أحد..

– ليتنى فقط أعلم عن أى شيء كان يبحث.. وهل وجد ما كان يبحث عنه أم لا؟

ونشطت هذه الكلمات ذاكرتى، وتبلورت أفكارى بغتة عندما سألنى تافرنر متى رأيت جوزيفين لآخر مرة.. فغادرت المكان مسرعاً، وهرولت إلى غرفة خزان الماء، وكان سقف الغرفة منخفضاً فاضطررت أن أحنى قامتى..

إننى رأيت جوزيفين لآخر مرة وهى تخرج من هذه الغرفة، وعندما سألتها ماذا كانت تفعل أجابت بأنها كانت تقوم ببعض أعمال البوليس السرى.

فماذا كانت ترجو أن تجد فى هذه الغرفة التى يخيم عليها نسيج

العنكبوت؟ أكبر الظن أنها لم تكن تبحث فى الغرفة عن شىء.. وإنما كانت تخفى بها شيئاً..

وبحثت فى الغرفة.. ولم تستغرق عملية البحث أكثر من ثلاث دقائق.

دسست يدى وراء خزان الماء.. ووجدت حزمة صغيرة ملفوفة فى قطعة من الورق الأسمر..

كانت حزمة رسائل.. فتناولت أولى هذه الرسائل وقرأت فيها ما يلى: أنت لا تعلم أيها العزيز لورانس، كم كانت سعادتى أمس وأنا أسمع الأشعار التى تلوتها علينا..

كنت تتجنب النظر إلى.. ولكنى كنت أعلم أنك توجه الكلام إلى.. وإلى وحدى..

قال لك أرستيد: «أنت قارئ ممتاز».. ولكنه لم يلاحظ الانفعالات التى تجيش فى صدرك وصدرى..

أنا واثقة أيها الحبيب أن كل شىء سينتهى قريباً على ما نروم. وأنى لأشعر بالارتياح كلما فكرت فى أنه سيموت دون أن يعرف ما بيننا.. وسيموت سعيداً.

لقد كان كريماً معى.. ولذلك لا أريد له أن يتألم..

إننى أعتقد أن الإنسان لن يجد متعة فى الحياة بعد أن يتجاوز الثمانين. ولذلك أرجو ألا يطول انتظارنا وأن يجمع الحب بيننا عما قريب.

كم سأكون سعيدة حين أدعوك:

ـ «يا زوجى العزيز»!! لقد خلق كل منا للآخر أيها الحبيب.. وأنا أحبك.. أحبك.. أحبك..

وكانت للرسالة بقية ولكنى شعرت بالاشمئزاز والاستنكار فلم أمض فى قراءتها.

وعدت إلى تافرنر وقدمت إليه حزمة الرسائل وأنا أقول:

– لعل هذه هى ما كانوا يبحثون عنه.

فقرأ تافرنر بضع فقرات من الرسالة الأولى، ونظر إلى وهو يبتسم وقال: أظن أن هذه الرسالة تحسم الأمر بالنسبة إلى بريندا ولورانس..

إننى أدهش الآن كلما تذكرت كيف تقلص عطفى على بريندا حالما قرأت رسائلها للورانس.. فهل كان ذلك لأنها كذبت على؟

ـ أم لأنها أثبتت أننى إنسان يسهل خداعه؟

ـ لا أعلم. فأننى لا أفهم كثيراً فى علم النفس شىء واحد لا أغفره لبريندا. هو أنها فى محاولتها التخلص من تبعات جريمتها الأولى، قد أقدمت بنذالة على الفتك بطفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة.

قــال تافــرنـر: الرأى عندى أن لورانس هو الذى أقــدم على هذه الفعلة. وذلك يفسر أمراً أثار حيرتى.

– ما هو؟

– دعنا نستعرض الحقائق بطريقة منطقية.. كانت الرسائل فى حوزة جوزيفين وكانت الخطوة الصحيحة.. هى محاولة استرداد هذه الرسائل فإذا نجحت المحاولة انتهى كل شىء.. إذ مهما تكلمت الفتاة

بعد ذلك فإن أحداً لن يصدقها لأنها لا تملك ما يثبت كلامها.. وسوف يقال حينئذ أنها اخترعت القصة كلها..

ولكنهم لم يجدوا الرسائل.. فأصبح من الضرورى التخلص من الفتاة لمنعها من الكلام.

وكان معروفاً أن الفتاة تحب التأرجح على باب الغرفة المهجورة. وإذن فالطريقة المثلى للتخلص منها، هى انتظارها فى الغرفة المهجورة وضربها بقطعة من الحجر أو الحديد.. وبذلك ينتهى الأمر.

ولكن الجانى لم يفعل ذلك.. وإنما لجأ إلى طريقة غير مؤكدة النتائج فكلف نفسه مؤونة موازنة الحجر فوق الباب ليسقط على الفتاة فيصيبها أو لا يصيبها.. فلماذا؟

- والجواب؟

- الجواب يتوقف على شخصية الجانى.. ونحن نعلم أن لورانس براون يفزع من أعمال العنف والقسوة، فمن المستحيل عليه أن يتوارى خلف الباب ليهشم رأس فتاة صغيرة.. ولكنه يستطيع موازنة الحجر على الباب، ليؤدى الحجر مهمته بينما هو بعيد عن مكان الحادث..

- فهمت.. على غرار عملية استبدال الأنسولين بالأيزيرن.

- تماماً.

- هل تعتقد أن بريندا كانت على علم بهذا التدبير؟

- من المحتمل جدًا أن يكونا قد اشتركا معا فى التخطيط. ومن المحتمل أيضاً أن تكون هى وحدها التى فتكت بزوجها.. فالسم هو

الوسيلة التقليدية للتخلص من الأزواج العجائز. ولكنى أراهن على أنها لم تنصب ذلك الفخ لجوزيفين.. فالنساء لا يحفلن بالوسائل الميكانيكية أو الآلية التى من هذا النوع.

– مهما يكن من أمر فإن الرسائل فيها الكفاية لإدانة العاشقين.. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تتماثل جوزيفين للشفاء. لكى تعود الطمأنينة والسعادة إلى هذا البيت.

ثم غمز بعينه واستطرد قائلاً: أظن أن من المثير أن يكون الإنسان خطيباً لفتاة تملك بضعة ملايين من الجنيهات.

وكنت فى غمرة الأحداث قد نسيت كل شىء عن الوصية فقلت:

– إن صوفيا لم تعلم بعد بمضمون الوصية فهل أخبرها؟

– أعتقد أن جيتسكيل سيجتمع بالأسرة غداً ليتلو عليها نص الوصية.

* * *

وفى مساء ذلك اليوم، تلقت صوفيا من المستشفى نبأ سارّا.

إن إصابة جوزيفين ليست من الخطورة كما ظن الجميع، وعما قريب تتماثل للشفاء.. ولكن زيارتها ستظل ممنوعة على الجميع.. حتى أمها.

قالت صوفيا وهى تنهى إلى هذا النبأ:

– وخاصة أمها.. ذلك ما آكدته فى حديثى مع الدكتور جراى.

ويبدو أنها رأت نظرة الاستنكار التى ارتسمت فى عينى.. لأنها قالت: لماذا الاستياء يا عزيزى؟

– يا إلهى!! إنها أم..

- يسرنى أن ترى فى الأمهات الرأى الذى كان شائعاً فيما مضى.. ولكنك لا تعرف أمى يا تشارلس.. إنها لطيفة جدًا. ولكنها لن تذهب لزيارة جوزيفين إلا لكى تلعب دوراً دراميًا أمام فراشها.. وليست هذه هى الطريقة المثلى للتعجيل باندمال الجرح.

- إنك تفكرين فى كل شىء أيتها العزيزة؟

- وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ لابد من شخص يرعى هذا البيت وأهله بعد رحيل جدى.

فلم أجب، ولكنى لم أتمالك من الإحساس بالإعجاب بحكمة العجوز وصدق فراسته..

إنه لم يخطىء حين وقع اختياره على صوفيا لتحمل المسئولية من بعده.



الرسائل

كنت مع صوفيا وبريندا فى الحديقة ذات صباح حين وقفت بالباب إحدى سيارات الشرطة وخرج منها المفتش تافرنر والضابط لام.

وكانت بريندا قد انضمت إلينا قبل بضع دقائق وهى تقول:

- إننى سأجن إذا لم أخرج فى الهواء الطلق، ولكنى كلما تجاوزت سور الحديقة حاصرنى الصحفيون وسدوا على الطريق.

فأجابتها صوفيا بأن الصحفيين سوف يتعبون من التربص بأفراد الأسرة وينصرفون.

فقالت بريندا فجأة وبلا مقدمات:

- حدثينى يا صوفيا.. هل أنهيت عمل لورانس؟ لماذا؟

- لسبب بسيط، هو أننا سنرسل جوزيفين إلى سويسرا وسنلحق أوستاش بإحدى مدارس لندن.

- إن لورانس حزين.. ويعتقد أنك لا تثقين به

وفى هذه اللحظة وقفت سيارة الشرطة بالباب وهبط منها تافرنر

وزميله فهتفت بريندا فى فزع: لماذا عادا؟ ماذا تريدان؟

ولاحظت أنها ترتجف.

لم أكن قد ذكرت شيئاً لصوفيا عن الرسائل التى وجدتها خلف خزان الماء ولكنى كنت أعلم أنها أرسلت إلى النائب العام.

واقترب تافرنر منا ووقف أمام بريندا وقال:

– إننى أحمل أمراً بالقبض عليك يا سيدتى.. أنت متهمة بأنك فى يوم ١٩ سبتمبر الماضى قتلت زوجك أرستيد ليونيدس بمادة الإيزيرين السامة، ومن واجبى أن أحذرك بأن كل ما ستقولينه سيسجل عليك وستحاسبين عليه عند محاكمتك.

فانهارت بريندا على الفور وتعلقت بساعدى وقالت وهى تبكى أنها بريئة، وأنها ضحية مؤامرة وتوسلت إلى ألا أدع تافرنر يقبض عليها وصرخت: أنا لم أفعل شيئاً.. لم أفعل شيئاً على الإطلاق.

كان الموقف رهيباً فحاولت أن أهدئ روعها وقلت لها أننى سأتفق مع محام للدفاع عنها، وأنها يجب أن تتمالك نفسها وتتسلح بالهدوء ورباطة الجأش.

وتأبط تافرنر ساعدها وقال:

– هلمى بنا يا سيدتى.

فنظرت إليه وسألت:

– ولورانس؟

– مستر لورانس براون؟ معى أمر باعتقاله أيضاً. فكفت عن

المقاومة، وسارت مع تافرنر ودموعها تنساب على خديها فى هدوء. وفى نفس اللحظة، رأيت لورانس براون يخرج من البيت برفقة «لام»، واستقل الجميع السيارة التى انطلقت بهم مسرعة فى الطريق إلى لندن.

تنفست الصعداء ونظرت إلى صوفيا.

كانت ترتجف ووجهها شديد الشحوب.

قالت:

- هذا مخيف!! يجب أن نجد لها أفضل المحامين.. ولكن لماذا اعتقلوها الآن؟ ظننت أنه لا توجد أدلة.

- إنهم وجدوا بعض الرسائل.

- رسائل غرامية تبودلت بينهما؟

- نعم..

فقالت مرة أخرى:

- هذا مخيف!!

- نعم.. كل هذا مخيف.. ولكن لا ضرورة للتعقيب عليه.

ألم تنته الأمور على هذا النحو الذى تمنيناه؟ لقد ظهرت الآن براءة آل ليونيدس وثبت أن أحداً منهم لم يكن لديه دافع لارتكاب الجريمة.

- فيما عداى.

- هذا صحيح.. ولكنك لم يكن لديك علم بمضون الوصية.

- بل كنت أعلم.

- أحقاً!

وشعرت بالدم يجمد فى عروقى.

قالت:

- كنت أعلم منذ وقت طويل أن جدى أوصى لى بكل ثروته.

- ولكن.. كيف علمت؟

- هو نفسه صارحنى بذلك قبل أسبوعين من وفاته.. قال لى ذات يوم وبغير مقدمات: «صوفيا.. أنت التى سترثين كل ثروتى.. وأنت التى ستعنين بأمر الأسرة بعد رحيلى»..

- ولكنك لم تنبئينى بذلك.

- ذلك لأننى سمعتهم يتحدثون عن وصية أخرى قيل أن جدى وقع عليها بإمضائه على مرأى منهم. فظننت أنه عدل عن فكرته.. وخشيت أن أثير الموضوع.

- لماذا؟

- خفت أن أتهم بارتكاب الجريمة.



ملاحقة المتهمين

وقفت السيارة بالباب، فهتفت فى سرور: ها هى جوزيفين قد عادت إلينا.

كانت الطفلة تبدو طبيعية تماماً.. فيما عدا أنها كانت معصوبة الرأس.

قالت على الفور:

- أريد أن أرى الأسماك الحمراء..

وهرولت إلى حوض الأسماك فصاحت بها أمها:

- أليس من الأفضل أن تستريحى فى فراشك قليلاً أيتها العزيزة وأن تتناولى بعد ذلك صفحة من الحساء ترد إليك صحتك؟

فأجابت الطفلة: لا تقلقى يا أماه فأننى بخير. ثم أننى لا أحب الحساء.

وكنت أعلم أنه كان من الممكن أن تغادر جوزيفين المستشفى قبل بضعة أيام.. ولكن المفتش تافرنر أوصى ببقائها هذه الأيام حرصاً على سلامتها.. وحتى لا تعود إلى البيت قبل اعتقال المتهمين. وزوال كل خطر محتمل.

قلت لماجدا:

– إن الهواء الطلق لن يضرها.. سألحق بها وأسهر عليها.

ولحقت بجوزيفين عند حوض الأسماك وقلت أحدثها:

– لقد حدثت أشياء كثيرة فى غيابك.

فنظرت إلى من ركن عينها ولم تجب.. وراحت تتابع حركة الأسماك فى الماء.

قلت لها:

– ألا يهمك أن تعرفى ما حدث هنا أثناء غيابك يا جوزيفين؟

– أظن أننى أعرف.

– هل تعلمين أنهم وجدوا وصية أخرى لجدك، أوصى فيها بكل ثروته لصوفيا؟

فهزت كتفها وقالت:

– أنبأتنى أمى بأمر هذه الوصية ولكنى كنت أعلم.

– هل حدثوك عنها فى المستشفى؟

– كلا.. كنت أعلم أن جدى ترك كل ثروته لصوفيا.. فقد قال لها ذلك بنفسه.

فأدركت أنها سمعت بطريقتها المألوفة ما دار من حديث بين صوفيا وجدها بشأن الوصية. وانتقلت إلى موضوع آخر.. قلت.

– ليتك عجلت بالحضور، إذن لرأيت كيف ألقى المفتش تافرنر القبض على بريندا ولورانس

وكنت أتوقع أن يثيرها هذا النبأ ولكنها قالت ببساطة:

- لقد رأيت..

- مستحيل!! فقد حدث ذلك قبل حضورك.

- إننا مررنا بسيارتهم ونحن فى الطريق إلى هنا.. وكان بالسيارة عدا بريندا ولورانس، كل من المفتش تافرنر وضابط الشرطة ذى الحذاء اللامع، فأدركت أنهما اعتقلا.

فقلت معتذراً:

- إننى قدمت الرسائل لتافرنر بعد أن عثرت عليها مخبأة وراء خزان الماء. كنت أوثر أن تقدميها أنت إليه، ولكنك كنت فى المستشفى.

- الواقع أن غرفة الخزان لم تكن المكان الملائم لإخفاء الرسائل.. وقد حدث ذات يوم أننى رأيت لورانس خارجاً من هذه الغرفة فأدركت أنه أخفى بها شيئاً، وتحقق ظنى حين دخلت الغرفة ووجدت الرسائل.

- ولكنى ظننت أنك أنت التى..

ولم أتم عبارتى، فقد سمعت أديث هافيلاند تدعو جوزيفين.. وتنهدت هذه وقالت:

- يجب أن أذهب.. فلا أحد يستطيع الإفلات من الخالة أديث.

وأسرعت تعدو فى الحديقة إلى حيث كانت أديث، فتبادلت معها بضع كلمات.. ثم توارت داخل البيت.

وذهبت بدورى إلى أديث.

كانت تبدو عليها دلائل التعب والإعياء وخيل إلى أن تجعدات

وجهها زادت عمقاً ووضوحاً.

وعندما اقتربت منها، حاولت أن تبتسم وقالت:

- هذه الصغيرة لا يبدو عليها أنها عانت كثيراً مما أصابها. ولكننا لن ندعها تغيب عن أنظارنا بعد الآن. رغم أن ذلك لم يعد ضروريّا.

ثم تنهدت وقالت: كما أنا سعيدة لأن كل شىء قد انتهى!! إننى رأيتهما من نافذتى وشعرت بالرثاء لهما.. وكان لورانس أشبه بالفأر فى المصيدة. على أننى أرجو أن يتولى الدفاع عن بريندا محام يأخذ بيدها ويقف إلى جانبها فى محنتها.

كان موقفها لا يقل غرابة عن موقف صوفيا. فكلتاهما تمقت بريندا وكلتاهما ترجو أن يبذل المستطاع لكفالة الدفاع عنها.

واستطردت أديث دى هافيلاند تقول:

- نعم.. يجب أن تهيأ لها كل الفرص وكل وسائل الدفاع الممكنة. حتى لا تذهب ضحية ظلم أو خطأ من أخطاء القضاء.

فسألتها: ولورانس؟

فأتت بحركة تدل على نفاد الصبر وقالت: لورانس رجل ويستطيع أن يتولى أمر نفسه. أما بريندا.. فإن أرستيد لن يغفر لنا إذا..

ولم تتم عبارتها وأردفت:

- لقد حان وقت الغذاء فهلم بنا إلى البيت.

ولكننى قلت لها إننى أنوى العودة إلى لندن فسألت:

- هل ستعود بالسيارة.

- نعم.

- هل تأخذنى معك؟ قيل لى أنه سمح لنا بمغادرة البيت.

- يسعدنى أن أصحبك معى. ولكن علمت أن ماجدا وصوفيا ستذهبان إلى لندن بعد ظهر اليوم. ولا شك أنك تفضلين سيارة فارهة كبيرة على سيارتى الصغيرة ذات المقعدين.

- يهمنى ألا أذهب معهما.. هلم بنا ولا تخبر أحداً.

فدهشت، ولكنى نزلت على إرادتها.. ولم نتحدث كثيراً فى الطريق، سألتها إلى أين تريد الذهاب فأجابت:

- إلى شارع هارلى «حيث يوجد كبار الأطباء».

وأقلقنى جوابها ولكنى لزمت الصمت.

قالت بعد قليل: بل الأفضل أن تتركنى أمام مطعم «دبنهار». سأتناول هناك طعام الغداء ثم أذهب بعد ذلك إلى شارع هارلى.

- آمل أن.

فلم تدعنى أتم عبارتى وقالت:

- لهذا لم أشأ القدوم مع ماجدا.. إنها تحيل كل شىء إلى مأساة.

- يؤسفنى أن أعلم أن..

- لا تأسف على شىء.. إننى فى أفضل صحة.. أريد فقط إجراء بعض الفحوص.

فى سكتلنديارد

لم أكن رأيت أبى خلال بضعة الأيام الأخيرة. فوجدته مشغولاً بقضية أخرى غير قضية ليونيدس.

ولم أجد بدا من الذهاب إلى تافرنر فى مكتبه. وكان أول ما فعلته أننى هنأته على توفيقه فى قضية البيت ذى القباب الثلاث، فتقبل تهنئتى فى سرور ولكن لم يبد عليه أنه راض كل الرضى.

قال: مهما يكن من أمر فقد اكتملت عناصر الاتهام وانتهى الأمر.

– هل تظن أن المحكمة ستدينهما؟

– من المتعذر التنبؤ بشىء فى مثل هذه القضية.. إنها تختلف عن سائر قضايا جرائم القتل فى أن الأدلة التى لدينا ليست أدلة مباشرة. وسوف يتوقف الكثير على الانطباع الذى يتركه المتهمان فى نفوس المحلفين.

– أليست الرسائل دليلاً كافياً؟

– إنها تبدو كذلك لأول وهلة. ففيها عبارات تشير إلى ما سوف ينعم به العاشقان من السعادة بعد موت العجوز. ولكن بوسع الدفاع أن

يزعم أنها عبارات بريئة وأن الزوج كان طاعنا فى السن فمن الطبيعى أن تتوقع زوجته وفاته فى أية لحظة.

يضاف إلى ذلك أنه يحتمل أن يزعم لورانس أنه الفاعل الوحيد وأن بريندا كانت تجهل كل شىء.. كما يحتمل أن يحدث العكس. أو أن يعترف بأن الجريمة ارتكبت باتفاقهما معا.

– وما رأيك أنت؟

– ليس لى رأى على الإطلاق. لقد جمعت الحقائق وكتبت تقريراً إلى النائب العام، وقرر النائب العام أن هناك ما يبرر تقديمها للمحاكمة. لقد أديت واجبى. ولا شأن لى بما يحدث بعد ذلك.

وشعرت من حديثه أنه غير مقتنع تماماً بالاتهام الموجه إلى بريندا وصديقها. وكدت أن أصارحه بذلك لولا أن دق جرس التليفون فى هذه اللحظة فتناول تافرنر السماعة. وأصغى. ثم قال لى:

– إنك مطلوب لحديث تليفونى فى مكتب أبيك.

فهرولت إلى مكتب أبى الذى بادرنى بقوله:

– إنها الآنسة صوفيا ليونيدس.. يبدو أن الأمر عاجل.

فتناولت السماعة وأنا أتوقع سماع نبأ اعتداء جديد على جوزيفين.

– آلو.. صوفيا؟

- أهذا أنت يا تشارلس؟

كانت فى صوتها نبرة يأس وقلق..

قالت: إن المشكلة لا تزال قائمة.. والقاتل مازال فى البيت.

- ماذا تعنين؟ هل حدث شىء لجوزيفين.

- كلا.. ليست جوزيفين.. أنها «نانى».

- نانى؟

- نعم.. كانت هناك بقية من «الكاكاو» فى قدح جوزيفين فلم تشأ نانى إهدارها وشربتها.

- مسكينة نانى.. هل حالتها سيئة؟

فقالت صوفيا بصوت متهدج:

- إنها ماتت.



الموت بالسم

أحسست وأنا فى السيارة التى أقلتنى مع المفتش تافرنر إلى البيت المشئوم بنفس الكابوس الذى رزح على صدرى فى رحلة مماثلة قمنا بها من قبل.

ووجدت أننى أردد بين الفينة والفينة بغير وعى:

- إن القاتل ليس لورانس أو بريندا.

والواقع أننى لم أقتنع بصحة اتهامهما، إنما تظاهرت بالاقتناع تجنبا للخوض فى احتمالات أخرى.

كنت أعلم أن بريندا بطبيعة تكوينها ومزاجها الخامل وولعها بالترف والاسترخاء والحياة السهلة لا يمكن أن تتورط فى مغامرة غرامية من العنف بحيث تدفعها إلى ارتكاب جريمة قتل.. وأن لورانس من الطراز الذى يؤثر الحياة فى الأحلام والخيالات على معالجة الأمور بالعنف والجريمة.. كل ما هناك أنهما وقعا فى فخ فجن جنونهما ذعراً ولم يعرفا كيف يخرجان.. ومن المحقق أن بريندا تخلصت من الرسائل التى تلقتها من لورانس لأن أحداً لم يعثر عليها.

أما لورانس فكان من الغباء بحيث احتفظ برسائلها إليه.. كذلك لم يكن مما يتفق مع تكوين لورانس وعقليته ومزاجه الشعرى أن يدبر ذلك الفخ للقضاء على جوزيفين. إن الذى دبر الفخ لا يزال حرًا طليقاً.

استقبلنا فى البيت شرطى لا أعرفه، انتحى بتافرنر ناحية وراح يتحدث إليه. أما أنا فقد لفت نظرى وجود حقائب تدل على أن هناك من يعتزم الرحيل، وعندما هممت بفحصها، أقبلت على كليمنسى وهى تقول:

– إنك جئت فى الوقت المناسب يا تشارلس لكى نودعك.

– هل اعتزمت الرحيل؟

– نعم.. سأرحل مع روجر وسنقضى هذه الليلة فى أحد فنادق لندن وغداً نستقل إحدى الطائرات.

كانت تبتسم. ولكنى رأيت فى عينيها نظرة قلق.

قلت لها: مستحيل أن ترحلا اليوم.

– لماذا؟

– توجد بالبيت امرأة قتيل.

– لا شأن لنا بموت نانى.

– ربما.. ومع ذلك.

– لماذا تقول «ربما». لقد كنت مع روجر فى شقتنا لإعداد حقائبنا، ولم نغادرها طيلة الوقت الذى كان فيه قدح «الكاكاو» على مائدة الطعام.

– هل تستطيعين إثبات ذلك؟

- ألا تكفى أقوالى وأقوال روجر؟

- كلا.. لا تنسى أنكما زوجان.

- هذا سخف يا تشارلس. إننى وروجر فى طريقنا إلى حياة جديدة فأية مصلحة لنا فى قتل امرأة طيبة مسكينة مثل نانى.

- ربما لم تكن هى المقصودة.

- وأية مصلحة لنا فى قتل طفلة؟

- هذا يتوقف على الطفلة.

- ماذا تعنى؟

- إن جوزيفين ليست طفلة عادية.. فهى تعرف أشياء كثيرة عن كل إنسان فى هذا البيت، وربما.

ولم أتم عبارتى، فقد رأيت جوزيفين مقبلة نحونا وهى تقضم تفاحة وعيناها تتألقان فوق وجنتيها الموردتين..

قالت تحدثنا: لقد ماتت «نانى» بالسم.. تماماً مثل جدى أنه أمر مثير أليس كذلك؟

فقلت لها بجفاء: ألست آسفة على «نانى»؟ أما كنت تحبينها؟

- كلا.. فكثيراً ما كانت تعنفنى..

- ألا يوجد من تحبينه يا جوزيفين؟

فأجابت وهى تنظر إلى كليمنسى من ركن عينها:

- أنا أحب أديث.. وكان من الممكن أن أحب أوستاش لو أنه اهتم

معى بالكشف عن المجرم الذى فعل كل هذا..

- من الخير لك أن تكفى عن البحث يا جوزيفين.. فذلك خطر.

- لم أعد بحاجة إلى البحث.. فقد عرفت كل شىء.

حنيئذ سمعت آهة عميقة، فرفعت رأسى، ورأيت أديث تهبط السلم وعيناها لا تتحولان عنها.

قلت وأنا أمسك بساعد جوزيفين:

- تعالى يا جوزيفين. أريد أن أتحدث إليك..

واقتدتها إلى غرفة صغيرة غير مطروقة، وأغلقت الباب وطلبت إليها أن تجلس ثم جلست أمامها وقلت لها:

- فى استطاعتنا الآن أن نتفاهم يا جوزيفين.. فحدثينى ..

- ماذا تعرفين؟

- أعرف أشياء كثيرة.

- هل تعرفين من وضع السم فى قدح الكاكاو؟ فأومأت برأسها علامة الإيجاب.

- وتعرفين من حاول قتلك فى غرفة المهملات؟

فهزت رأسها مرة أخرى.

- إذن يجب أن تصارحينى بكل ما تعرفين. وفوراً.

- كلا.

- إن من واجبك أن تضعى كل معلوماتك بين أيدى رجال البوليس.

- رجال البوليس مغفلون، ولن أقول لهم شيئاً، لقد توهموا أن بريندا ولورانس هما القاتلان.. ولكنى لم أكن مغفلة مثلهم.. كنت أعلم أن بريندا ولورانس بريئان..

- جوزيفين.. إننى أعترف لك بالذكاء. ولكن ما قيمة هذا الذكاء إذا لم تستمتعى بلذة انتصاراتك؟ ألا تعلمين أيتها الحمقاء الصغيرة، أن حياتك ستظل دائماً فى خطر طالما تحتفظين لنفسك بالأسرار التى تعرفينها؟

- أعلم ذلك جيداً.

- إذن ستقولين لى ماتعرفين.. ولو اضطررت فى سبيل ذلك إلى استخدام العنف.

- فى استطاعتى دائماً أن أكذب..

- أعلم ذلك.. ولكن ماذا تفيدين من الكذب؟ وإلى متى تريدين الاحتفاظ بمعلوماتك؟

- أنت لا تفهم.. فإنه من المحتمل جدّا ألا أتكلم أبداً. ربما لأننى أحب المجرم أو لأننى أعطف عليه.. هل فهمت؟

وصمتت لحظة. كأنما لتمنحنى فرصة لاستيعاب وجهة نظرها، ثم استطردت قائلة:

- على أننى متى قررت الكلام فسوف أفعل ذلك طبقاً للأصول، فأدعو إلى اجتماع حافل فى قاعة فسيحة.. وأحكى كل شىء، ثم أشير إلى القاتل وأصيح به: أنت القاتل..

ومدت أصبع الاتهام فى اللحظة التى دخلت فيها أديث دى هافيلاند.

وصعدت أديث الطفلة بعينيها ثم قالت لها أنها ستخرج معها إلى نزهة بالسيارة. وفهمت من نظرتها إلى أنها تفعل ذلك كوسيلة لتأمين سلامة الطفلة خلال الساعتين القادمتين.

وابتسمت جوزيفين ورحبت بالنزهة المرتقبة فقالت أديث:

– صففى شعرك واحضرى قبعتك ومعطفك فإن الجو يميل إلى البرودة. هل لك أن ترافقها إلى غرفتها يا تشارلس ريثما أكتب رسالتين صغيرتين؟؟

فاصطحبت جوزيفين إلى غرفتها وكان فى نيتى أن أفعل ذلك حتى ولو لم تطلبه أديث.. فقد كنت أشعر بأن الطفلة تواجه خطرا لا شك فيه.

وساعدت جوزيفين فى تصفيف شعرها، وكنت أضع اللمسات الأخيرة فى زينتها حين دخلت صوفيا وأدهشها ما رأت فهتفت:

– أنت هنا يا تشارلس؟ لم أكن أعلم أنك أصبحت «وصيفة».

وراعنى شحوبها.. والهالة السوداء التى تحت عينيها.

وذهبنا إلى أديث وكانت قد فرغت لتوها من رسالتها الثانية فنهضت وهى تقول:

– هيا بنا يا جوزيفين.. لقد أمرت «إيفانز» بإعداد السيارة الفورد السوداء.

واجتزنا البهو، وكانت الحقائب لا تزال فى مكانها، فوقفت أديث بالباب، ونظرت إلى السماء وقالت:

- إن الجو صحو.. والنسيم بارد ولكنه منعش.

ثم تحولت إلى صوفيا وقبلتها وقالت:

- إلى اللقاء يا عزيزتى.. لا تجهدى نفسك فهناك أشياء لا مفر منها ويجب مواجهتها.

وكانت السيارة تنتظر بالباب، فاحتلت أديث مكانها أمام عجلة القيادة.. وجلست جوزيفين بجوارها ولوحت لنا أديث وجوزيفين بأيديهما مودعتين.. وتحركت السيارة.

قلت أحدث صوفيا:

- لقد أحسنت أديث بإبعاد جوزيفين عن البيت.. ولكنى مازلت مقتنعاً بضرورة إرغام هذه الطفلة على الإفضاء بكل ما تفعله- من المحتمل أنها لا تعرف شيئاً على الإطلاق إنها مغرورة، وتحب أن تضفى على نفسها شيئاً من الأهمية.

- هل عرفتم نوع المادة السامة التى وضعت فى قدح.

- المعتقد أنها مادة «الديجتالين»، التى تتناولها أديث كعلاج لقلبها. كانت بغرفتها زجاجة مليئة بالأقراص وقد وجدت فارغة..

- كان يجب عليها أن تضعها فى مكان مغلق..

- ذلك ما فعلته.. ولكن لم يكن من العسير العثور على المفتاح.

اليوم قتلت جدى

غـــابت الشـــمس وراء الأفق وهبت نسمة باردة، فارتعدت صوفيا وقالت: مـضت أربع سـاعـات ولما تعـد أديث وجوزيفين. هلم بنا ندخل البيت.

وكنا وقتئذ فى الحديقة، فتأبطت ساعدها وعدت معها إلى البيت، حيث تناولنا الشاى وجلسنا ننتظر.

ومرت ساعة أخرى.. وبدأ القلق يفرى أعصابنا. وكان تافرنر لا يزال بالبيت، فحدثته عما يساورنا من قلق على أديث وجوزيفين.. فأجرى بعض الاتصالات التليفونية وأصدر بعض التعليمات.. وقال لى أنه سيخطرنى حالما يتلقى نبأ عنهما.

وعدت إلى قاعة الاستقبال، ووجدت صوفيا فى حالة يرثى لها من القلق..

قالت حالما أبصرت بى:

– لابد أنه قد حدث لهما حادث يا تشارلس.. أنا واثقة من ذلك.

فضحك أوستاش وقال:

- لماذا القلق؟؟ لا شك أنهما ذهبتا إلى السينما.

وخرج وهو لا يزال يضحك.

وحوالى الساعة السادسة، جاء تافرنر ووجهه ينم عن النبأ الذى يحمله.

ونظرت إليه صوفيا.. وحبستَ أنفاسها.

قال:

- يؤسفنى أن أحمل إليكم أنباء سيئة. لقد أذعت نداء بالراديو.. فأبلغنا أحد شرطة المرور أنه رأى السيارة تنحرف عن الطرق العام بالقرب من «فلاكسبور» وتسير نحو الغابة.

- فى الطريق إلى المحاجر؟

- نعم..

وصمت قليلاً ثم قال:

- وقد وجدت السيارة مقلوبة فى أحد المحاجر.. وبداخلها جثتان.. وقد يخفف من وقع الكارثة أن تعلموا أنهما توفيتا فور انقلاب السيارة. وعندئذ سمعنا صرخة مدوية:

- جوزيفين!!

كانت ماجدا بالباب وقد سمعت النبأ.

صرخت مرة أخرى:

- جوزيفين.. ابنتى العزيزة!!

فأسرعت صوفيا إلى أمها واحتضنتها.. وضمتها إلى صدرها.

وتذكرت فى هذه اللحظة أمراً.

تذكرت أن أديث دى هافيلاند كتبت رسالتين.. وأن الرسالتين كانتا فى يدها عندما اجتازت البهو.. ولكنى لم أرهما عندما ركبت السيارة.

أسرعت إلى البهو.. ولم تمض لحظات حتى عثرت بالرسالتين خلف آنية للزهور فوق المدفأة.

كانت إحدى الرسالتين تحمل اسم المفتش تافرنر.. وكان تافرنر قد تبعنى فأعطيته الرسالة ففضها وقرأ بصوت مسموع:

«أعتقد أن هذه الرسالة سوف تقرأ بعد موتى..

«لست أريد الخوض فى التفصيلات. ولكنى أعلن بإيجاز مسئوليتى عن موت أرستيد ليونيدس، وجانيت رو المشهورة بنانى.. وأقرر أن بريندا ليونيدس ولورانس براون بريئان مما نسب إليهما.. وسوف يؤكد الدكتور مايكل شافاس الطبيب بشارع هارلى أننى مصابة بسرطان الحلق وأن موتى محقق بعد بضعة شهور ولذلك قررت ألا أرحل بالطريقة التى اخترتها دون أن أوفر على شخصين بريئين محنة محاكمتهما لجريمة لم يرتكباها..».

أديث دى هافيلاند

* * *

سمعت صوفيا نص الرسالة كما سمعته وهتفت وهى لا تكاد تصدق أذنيها:

– الخالة أديث..

ثم نطقت على الفور بالسؤال الذى كان يتحير على شفتى إذ قالت:

– وجوزيفين.. ما ذنبها؟ لماذا اصطحبتها؟

فقلت:

– نعم.. لماذا قتلتها؟ لماذا؟

ولكنى كنت أعرف الجواب.

كانت الرسالة الثانية لا تزال فى يدى.. وكانت أضخم من الأولى.. وقد عرفت محتوياتها قبل أن أفضها.

عرفت أنها تحتوى على الدفتر الصغير الأسود.. دفتر جوزيفين.

وأطلت صوفيا من فوق كتفى لتقرأ معى السطر الأول فى الدفتر:

«اليوم قتلت جدى»..



جوزيفين القاتلة

لقد تساءلت فيما بعد كيف لم أدرك هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار، حقيقة أن جوزيفين هى الوحيدة التى لا يمكن أن يتخطاها الاتهام.

كان غرورها، والأهمية التى تضفيها على نفسها، وحرصها على إبراز ذكائها .. واللذة التى تشعر بها عند المقارنة بين مقدرتها وعجز رجال البوليس..

- كل هذه كانت أصابع اتهام تشير إليها..

ولأنها طفلة، لم يخطر ببالى قط أنها تستطيع ارتكاب جريمة قتل، ونسيت أن أرستيد ليونيدس قد أرشدها بنفسه إلى الطريقة..

- وأنه كان بوسعها أن تعمل بإرشاده، مع احتياط بسيط هو ألا تترك بصمات أصابعها.. وذلك أمر لابد أنها عرفته من إدمانها قراءة القصص البوليسيه.

وذلك الفخ الذى نصب لها فى غرفة المهملات..

ـ كان يجب أن أدرك أنها هى التى نصبته لنفسها.. فإنها رغم ذكائها قد تركت آثارها فى صورة قطع من الوحل الجاف على المقعد الخشبى.. وقد كانت هى الوحيدة بين أهل البيت التى لا تستطيع بلوغ الحافة العليا للباب إلا إذا وقفت على الكرسى.

يضاف إلى ذلك أن الفخ كان على جانب كبير من السذاجة وضحالة التفكير، إذ كان من الممكن أن يهشم التمثال الرخامى رأسها ويقتلها. ولكن مما لا شك فيه أنها كانت تنظر إلى نفسها كبطلة، وبطلات القصص فيما تعلم لا يمتن.

وقد استطاعت ببراعة أن تلفت نظرى إلى الخزان، ونجحت فى تشتيت تفكيرنا وإبعاد الشبهات عن نفسها بتلك الفوضى التى أحدثتها فى غرفتها.

وعندما عادت من المستشفى وعلمت باعتقال بريندا لورانس، أحست بخيبة الأمل، وشعرت بأن المغامرة بلغت ذروتها وبأن الأضواء ستنحسر عنها، فسرقت ذلك العقار من غرفة أديث ووضعته فى الكمية التى لم تشربها من «الكاكاو» وتركت القدح فى مكان واضح على المائدة.

فهل كانت تعلم أن نانى ستشرب بقية الكاكاو؟

ربما.

لقد قالت لى بنفسها أنها تمقت «نانى» لأنها كثيراً ما نهرتها وعنفتها.

أم ترى أن نانى، بما لها من خبرة فى تربية الأطفال، قد فطنت إلى

الحقيقة، وأدركت أن جوزيفين وراء الجريمة وسارعت هذه إلى الفتك بها؟

ذلك ممكن أيضاً..

– لقد كانت جوزيفين بإجماع الآراء مخلوقة غير عادية، فهى ذكية العقل ولكنها ملتوية التفكير.. ولابد أن يكون أرستيد ليونيدس قد أدرك هذه الحقيقة منذ وقت طويل فأشفق على الأسرة وعلى الطفلة نفسها من تبعات انحرافها العقلى، وقرر تثقيفها فى البيت وعدم إرسالها إلى المدرسة..

وماجدا.. هل كانت تعرف الحقيقة؟

إن إسراعها فى إرسال ابنتها إلى سويسرا يدعو إلى هذا التساؤل.

ولكنى لا أظن أنها كانت تعرف.

- ولعل غريزة الأمومة وحدها هى التى دفعتها إلى التفكير فى إقصاء ابنتها خوفاً من المجهول..

وأديث دى هافيلاند؟

وتناولت رسالة أديث التى أرفقتها بالدفتر الصغيرة الأسود وقرأت فيها ما يلى:

«عزيزى تشارلس..

هذه الرسالة لك وحدك، ولصوفيا إذا استصوبت أنت ذلك، فلقد رأيت من الضرورى أن أطلع إنساناً ما على الحقيقة.

إننى وجدت الدفتر المرفق فى حظيرة مهجورة من حظائر الكلاب

خلف البيت. وما قرأته فى الدفتر قد أكد الظنون التى خامرتنى..

ـ فهل أنا على صواب فيما قررت الإقدام عليه؟

ـ لا أعلم.

ـ ولكن حياتى قد انتهت تقريباً. ولست أريد للطفلة أن تكابد العذاب الذى ينتظرها حتماً عندما تسأل عما قدمت يداها.

إن الطبيعة كثيراً ما تدفع إلى الحياة صغاراً يختلفون عن غيرهم.

فإذا كنت قد أخطأت.. فأننى أرجو الله أن يغفر لى.. لأن ما سأفعله.. إنما أفعله بدافع الحب.

بارك الله فيكما.

أديث دى هافيلاند

قرأت هذه الرسالة، ولم أتردد إلا قليلاً قبل أن أدفع بها إلى صوفيا.

ولما فرغت صوفيا من قراءتها، شرعنا فى تلاوة ما سجلته الطفلة فى دفترها من اعترافات تثير الشفقة بسذاجتها وإخلاصها:

– اليوم، قتلت جدى..

إنه لا يريدنى أن أتعلم رقصة الباليه. فقررت أن أقتله لكى أنتقل مع أمى إلى لندن.. وأصبح راقصة باليه عظيمة؟

وكانت الفقرة التالية لا تقل غرابة عن سابقتها:

«لا أريد السفر إلى سويسرا.. فإذا أصرت أمى فسأقتلها.. ليس

لدى «سم» ولكنى سأجد وسيلة ما.. إن أوستاش يغيظنى.. فهو يقول أننى فتاة، وأن الفتيات لا يصلحن لأعمال البوليس. ولكنه لابد أن يعدل عن رأيه إذا علم أننى التى قتلت جدى.

«أنا أحب تشارلس.. ولكنه غبى.

«لست أعلم بعد، من أتهم بارتكاب الجريمة؟

ـ ربما أتهم بريندا ولورانس.. إنى أمقت بريندا لأنها تقول أننى مخلوقة شاذة.. ولكنى أحب لورانس.. إنه روى لى قصة شارلوت كورداى التى قتلت أحد زعماء الثورة الفرنسية وهو يستحم»..

وجاء فى الصفحة الأخيرة:

«إننى أكره «نانى» فهى تزعم أننى طفلة مغرورة تريد أن تجعل لنفسها أهمية.. وهى التى تحض أمى على إرسالى إلى سويسرا. سأقتلها. وأظن أن دواء الخالة أديث يكفى لذلك.. ومتى حدثت جريمة ثانية. فإن رجال البوليس يعودون إلى البيت، ويصبح الموقف مثيراً».

.. ماتت نانى.. ولا أعلم أين سأخفى زجاجة الدواء قد أخفيها فى غرفة العمة كليمنسى..

ـ أو فى غرفة أوستاش..

«وحينما أشعر بدنو أجلى.. بعد أن أكون قد بلغت من السن عتيا، سأرسل هذا الدفتر إلى مدير البوليس لكى يعلم أننى كنت أعجوبة العصر فى فن الجريمة..»

وطويت الدفتر فهتفت صوفيا وهى تبكى:

– هذا مخيف يا تشارلس.. كانت المسكينة وحشا فى صورة إنسان.. ولكنى لا أشعر نحوها بغير الشفقة والرثاء.

وكان ذلك هو شعورى أيضاً..

وسألتنى صوفيا:

– ما هو المصير الذى كان ينتظرها لو أنها عاشت؟

– كانوا سيضعونها فى معهد للشواذ ومتى كبرت ألقوا بها فى السجن.

– إذن فقد أحسنت أديث صنعاً.

– نعم.. إنها أقدمت على أنبل تضحية يمكن أن تقدم عليها امرأة من أجل أسرتها.

تمت

